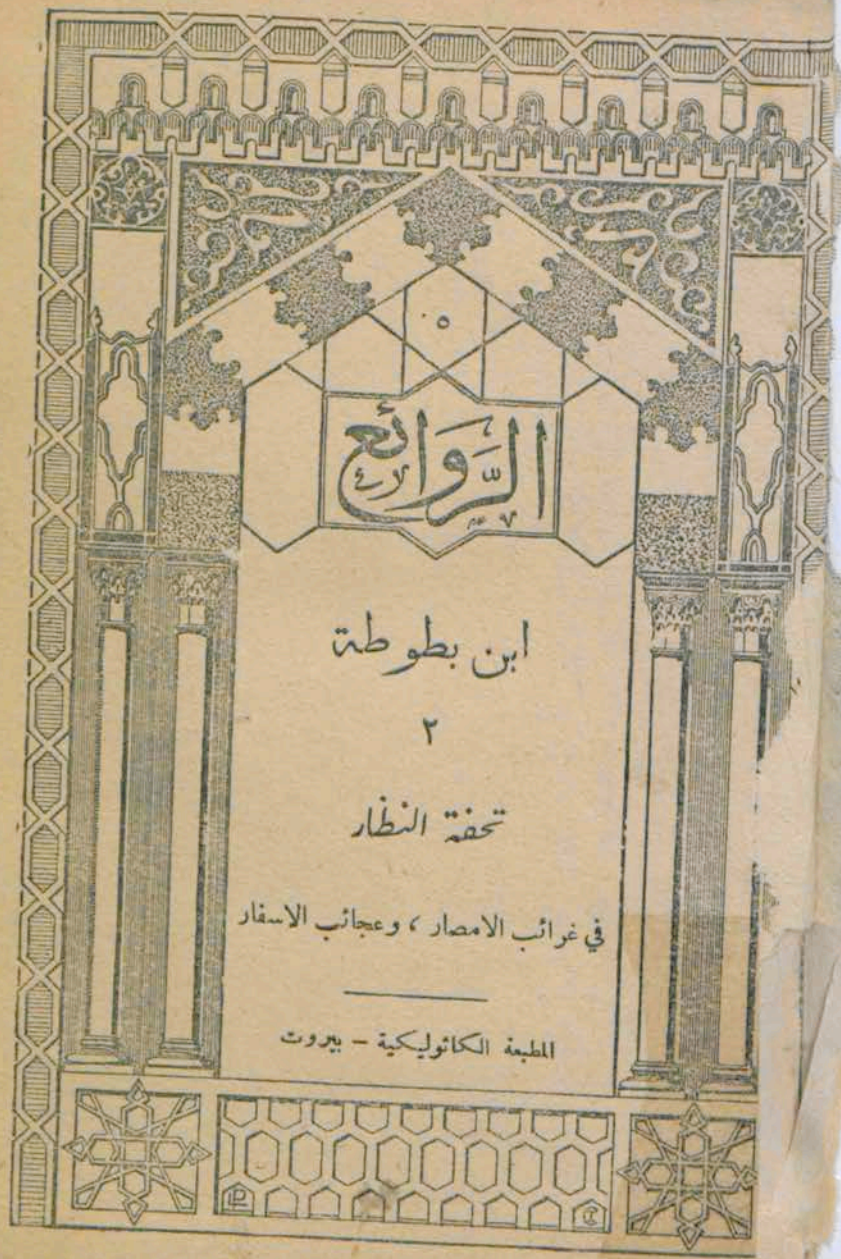
الروائع
٥
ابن بطوطة
٢
تحفة النظار
في غرائب الامصار ، وعجائب الاسفار
المطبعة الكاثوليكية - بيروت

٧٩١
٢٥

ابن بطوطة

تحفة النظار

في غرائب الامصار، وعجائب الاسفار

١٢٧٩١

درس ومنتخبات

بقلم

فؤاد افرام البستاني

استاذ الآداب العربية في كلية القديس يوسف

٢٧٨٢٣٠

الجزء الثاني

جميع الحقوق محفوظة للمطبعة

المطبعة الكاثوليكية

بيروت

١٩٢٧

ابن بطوطة ورحلته

وُلد ابو عبد الله محمد المعروف بابن بطوطة في طنجة سنة ١٣٠٤.
ولم يبلغ الثانية والعشرين من عمره حتى دفع به عامل التقوى الى الحجّ، فقصد مكة سنة ١٣٢٥. غير ان حبّه للاسفار ساقه الى مختلف البلاد: فقام برحلة اولى زار بها افريقيا الشمالية، فسوريا، فجزيرة العرب، فافريقيا الشرقية، فآسيا الصغرى، فروسيا الجنوبية، فالقسطنطينية، فالسند والهند والصين. ورجع الى مراكش سنة ١٣٤٩.

ولم يلبث ان قام برحلة ثانية الى بلاد الاندلس. فثالثة الى بلاد السودان فزار تنبكتو، وتكدّا، وهكار.

ثم عاد الى فاس فاكرمه سلطانها، وامره ان يملي رحلته على احد كتّابه محمد بن جُزَيّ. فقام بذلك وسمّى الكتاب «تحفة النظّار، في غرائب الامصار، وعجائب الاسفار».

وتوفي ابن بطوطة سنة ١٣٧٧. ولا شكّ في ان قيمته كبيرة جدًّا بسبب سعة البلدان التي جال فيها، والمعلومات العديدة التي ذكرها عن مختلف الشعوب. وقد اطلنا البحث في حياته، وصدقه، وامانته في مقدّمة الجزء الاول من الرحلة، فلتراجع.

وتركناه في الجزء الاول المذكور، في حصون الاسماعيلية، بعد ان زار مراكش، وتونس، والجزائر، والقطر المصري، وفلسطين، والقسم الكبير من سوريا. وها هو يتكلّم الان عن طائفة الاسماعيلية الغريبة:

كتابخانه خصوصى
غلامحسين - سروه

تحفة النظار

في غرائب الامصار وعجائب الاسفار

الرحلة الاولى

تابع

٢

الاسماعيليّة

وهذه الحصون لطائفة يقال لهم: «الاسماعيلية» ويقال لهم: «الفداوية» ولا يدخل عليهم احد من غيرهم. وهم سهام الملك الناصر، بهم يصيب من بَعُد عنه من اعدائه بالعراق وغيرها. ولهم المرتّبات. واذا اراد السلطان ان يبعث احدهم الى اغتيال عدوّ له، اعطاه دِيَته. فان سلم بعد تأتّي ما يُراد منه، فهي له؛ وان أُصيب، فهي لوُلده. ولهم سكاكين مسمومة يضربون بها من بُعثوا الى قتله. وربما لم تصحّ حيلُهم فقُتلوا. كما جرى لهم مع الامير قراسنقور، فانه لما هرب الى العراق بعث اليه الملك الناصر جملة منهم. فقُتلوا ولم يقدروا عليه لاخذه بالحزم.

اللاذقية

ثم سافرت الى مدينة اللاذقية. وهي مدينة عتيقة على ساحل البحر، يزعمون انها مدينة الملك الذي كان يأخذ كل سفينة غصباً (١. وكنت انما قصدتها لزيارة الوليّ الصالح، عبد المحسن الاسكندري. فلما وصلتها وجدته غائباً بالحجاز الشريف.

وبخارج اللاذقية الدير المعروف بدير الفاروص. وهو اعظم دير بالشام، ومصر. يسكنه الرهبان، ويقصده النصارى من الآفاق. وكل من نزل به من المسلمين، فالنصارى يضيفونه. وطعامهم الخبز والجبن والزيتون والخلّ والكَبَر (٢.

وميناء هذه المدينة عليها سلسلة بين بُرجين، لا يدخلها احد ولا يخرج حتى تُحط له السلسلة. وهي من احسن المراسي بالشام.

ثم سافر الى حصن المرقب، فجبل الاقرع

جبل لبنان

وسافرت منه الى جبل لبنان، وهو من اخصب جبال الدنيا. فيه اصناف الفواكه، وعيون الماء، والظلال الوافرة. ولا يخلو من المنقطعين الى الله تعالى، والزُهّاد والصالحين. وهو شهير بذلك. ورأيت به جماعة من الصالحين قد انقطعوا الى الله تعالى، ممن لم يشتهر اسمه.

١) اشارة الى ما ورد في القرآن: «وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصباً» (سورة الكهف: ٧٨)

٢) الكَبَر: شجر الأصف وتسمّيه العامّة بالكبّار والقبّار، تؤخذ ازهاره وتُكبس في الخلّ

حكاية

اخبرني بعض الصالحين الذي لقيتهم به قال: «كنّا بهذا الجبل مع جماعة من الفقراء، ايام البرد الشديد، فاوقدنا ناراً عظيمة واحدقنا بها. فقال بعض الحاضرين: «يصلح لهذه النار ما يُشوى فيها!» فقال احد الفقراء ممّن تزدريه الاعين، ولا يؤبه به: «اني كنت عند صلاة العصر بمتعبّد ابراهيم بن أدهم، فرأيت بمقربة منه حمار وحش قد احدق الثلج به من كل جانب. واظنه لا يقدر على الحراك، فلو ذهبتم اليه لقدرتم عليه، وشويتم لحمه في هذه النار» قال: «فقمنا اليه في خمسة رجال فالفيناه كما وُصف الينا. فقبضناه واتينا به اصحابنا، فذبحناه واشوينا لحمه في تلك النار. وطلبنا الفقير الذي نبّه عليه، فلم نجده ولا وقعنا له على أثر. فطال عجبنا منه».

بعلبك – الزبداني

ثم وصلنا من جبل لبنان الى مدينة بعلبك. وهي حسنة قديمة من اطيب مدن الشام تحدق بها البساتين الشريفة، والجنّات المنيفة. وتخترق ارضها الانهار الجارية، وتضاهي دمشق في خيراتها المتناهية. وبها من حَبّ الملوك (١ ما ليس في سواها. وبها يصنع الدبس المنسوب اليها، وهو نوع من الربّ يصنعونه من العِنَب، ولهم تربة يضعونها فيه فيجمد، وتُكسر القُلّة التي يكون بها فيبقى قطعة واحدة، وتُصنع منه الحلواء، ويُجعل

١) حبّ الملوك: نوع من الكرز

فيها الفستق واللوز، ويسمون حلواءه « بالملبن »، ويسمّونها ايضاً « بجلد الفرس ». وهي كثيرة الالبان وتجلب منها الى دمشق، وبينهما مسيرة يوم للمجدّ. واما الرفاق فيخرجون من بعلبك فيبيتون في بلدة صغيرة تُعرف بالزبداني، كثيرة الفواكه، ويفدون منها الى دمشق.

ويصنع ببعلبك الثياب المنسوبة اليها من الإحرام وغيره. ويصنع بها اواني الخشب وملاعقه التي لا نظير لها في البلاد. وهم يسمّون الصحاف بالدسوت. وربما صنعوا الصحفة، وصنعوا صحفة اخرى تسع في جوفها الى ان يبلغوا العشرة، يخيّل لرائيها انها صحفة واحدة. وكذلك الملاعق، يصنعون منها عشرة، واحدة في جوف واحدة. ويصنعون لها غشاء من جلد، ويمسكها الرجل في حزامه. واذا حضر عشاء مع اصحابه، اخرج ذلك، فيظنّ رائيه انها ملعقة واحدة، ثم يخرج من جوفها تسعاً.

وكان دخولي لبعلبك عشية النهار وخرجت منها بالغَدو لفرط اشتياقي الى دمشق.

دمشق

ووصلت يوم الخميس التاسع من شهر رمضان المعظّم عام ستة وعشرين (١ الى مدينة دمشق الشام فنزلت منها بمدرسة المالكيّة، المعروفة بالشرابشيّة. ودمشق هي التي تفضل جميع البلاد حسناً، وتتقدّمها جمالاً، وكل وصف وان طال فهو قاصرٌ عن محاسنها.

ثم يذكر وصف الرحّالة ابن جُبير لدمشق، ويزيد ابن جُزَيّ فيورد اقوال بعض الشعراء والادباء، الى ان يقول ابن بطوطة :

١) اي سنة ٧٢٦ (١٣٢٦)

واهل دمشق لا يعملون يوم السبت عملاً. انما يخرجون الى المتنزهات وشطوط الانهار، ودوحات الاشجار، بين البساتين النضيرة، والمياه الجارية، فيكونون بها يومهم الى الليل.

ذكر جامع دمشق المعروف بجامع بني امية

وهو اعظم مساجد الدنيا احتفالاً، واتقنها صناعةً، وابدعها حسناً وبهجةً وكمالاً. ولا يُعلم له نظير ولا يوجد له شبيه. وكان الذي تولّى بناءه واتقانه، امير المؤمنين الوليد بن عبد الملك بن مروان، ووجّه الى ملك الروم بقسطنطينية يأمره ان يبعث اليه الصنّاع، فبعث اليه اثني عشر الف صانع. وكان موضع المسجد كنيسة. فلما افتتح المسلمون دمشق، دخل خالد بن الوليد (رضه) من احدى جهاتها بالسيف، فانتهى الى نصف الكنيسة. ودخل ابو عبيدة بن الجراح (رضه) من الجهة الغربية صلحاً فانتهى الى نصف الكنيسة. فصنع المسلمون من نصف الكنيسة الذي دخلوه عَنوةً مسجداً، وبقي النصف الذي صالحوا عليه كنيسة. فلما عزم الوليد على زيادة الكنيسة في المسجد، طلب من الروم ان يبيعوا منه كنيستهم تلك بما شاؤوا من عوض، فابوا عليه؛ فانتزعها من ايديهم...

وزُيّن هذا المسجد بفصوص الذهب المعروفة بالفسيفساء. تخالطها انواع الاصبغة الغريبة الحسن. وذرع المسجد في الطول من الشرق الى الغرب مائتا خطوة، وهي ثلاثمائة ذراع. وعرضه من القبلة الى الجوف مائة وخمس وثلاثون خطوة، وهي مائتا ذراع (١. وعدد شمسات الزجاج الملوّنة التي

١) والاصح مائتا ذراع وذراعان ونصف

فيه اربع وسبعون. وبلاطاته ثلاثة مستطيلة من شرق الى غرب، سعة كل بلاط منها ثمان عشر خطوة، وقد قامت على اربع وخمسين سارية، وثماني ارجل جصّية، تتخلّلها ٤ وستة ارجل مرخّمة مرصّعة بالرخام الملوّن، قد صوّر فيها اشكال محاريب وسواها. وهي تقلّ قبة الرصاص التي امام المحراب، المسمّاة بقبة النسر، كأنهم شبهوا المسجد نسراً طائراً والقبة رأسه. وهي من اعجب مباني الدنيا. ومن اي جهة استقبلت المدينة بدت لك قبة النسر، ذاهبةً في الهواء، منيفة على جميع مباني البلد. وتستدير بالصحن بلاطات ثلاثة من جهاته الشرقية، والغربية، والجوفية، سعة كل بلاط منها عشر خطاء. وبها من السواري ثلاث وثلاثون، ومن الارجل اربع عشرة. وسعة الصحن مائة ذراع وهو من اجمل المناظر واتقنها حسناً.

وفي هذا الصحن ثلاث من القباب: احداها في غربيه وهي اكبرها، وتسمّى قبة عائشة، ام المؤمنين. وهي قائمة على ثمان سواري من الرخام، مزخرفة بالفصوص والاصبغة الملوّنة، مسقّفة بالرصاص. يقال ان مال الجامع كان يُختزن بها. وذُكر لي ان فوائد مستغلّات الجامع ومجابيه نحو خمسة وعشرين الف دينار ذهباً في كل سنة. والقبة الثانية من شرقي الصحن على هيئة الاخرى الا انها اصغر منها، قائمة على ثمان من سواري الرخام، وتسمّى قبة زين العابدين. والقبة الثالثة في وسط الصحن، وهي صغيرة مثمّنة، من رخام عجيب، محكم الالصاق، قائمة على اربع سواري من الرخام الناصع. وتحتها شباك حديد في وسط انبوب نحاس يمجّ الماء الى علوّ، فيرتفع ثم ينثني كانه قضيب لُجين، وهم يسمّونه «قفص الماء». ويستحسن الناس وضع افواههم فيه للشرب...

ويلي ذلك ذكر ما حول المسجد وذكر الائمة، وقضاة دمشق ومدارس المذاهب الاربعة فيها. ثم يذكر بعض ابوابها كباب الفراديس، وباب الجابية، والصغير. ويبسط الكلام في مزاراتها، ومشاهدها، وارباضها التي تدور بالمدينة من جهاتها ما عدا الشرقية واسمها ربض الصالحية «وهي مدينة عظيمة لها سوق لا نظير لحسنه» ويتكلم عن جبل قاسيون ومشاهده المباركة، والرَبوة، والقرى التي تواليها الى ان يصل الى وصف اهل دمشق، فيثني على اخلاقهم الطيبة ويشكر لهم اعمالهم واوقافهم العديدة في سبيل الخير: كالاوقاف لتجهيز البنات الفقيرات، وفكاك الاسرى، واعانة ابناء السبيل، وتعديل الطرق. ويذكر الحكاية التالية شاهداً على ذلك:

حكاية

مررت يوماً ببعض ازقّة دمشق، فرأيت به مملوكاً صغيراً قد سقطت من يده صحفة من الفخار الصيني، وهم يسمّونها «الصحن»، فتكسّرت، واجتمع عليه الناس. فقال له بعضهم: «اجمع شقفها، واحملها معك لصاحب اوقاف الاواني». فجمعها وذهب الرجل معه اليه فاراه اياها. فدفع له ما اشترى به مثل ذاك الصحن. وهذا من احسن الاعمال. فان سيد الغلام لابدّ له ان يضربه على كسر الصحن، او ينهره. وهو ايضاً ينكسر قلبه ويتغيّر لاجل ذلك. فكان هذا الوقف جبراً للقلوب، جزى الله خيراً من تسامت همّته في الخير الى مثل هذا.

مرضهُ - ضيافة دمشقي

ولما وردت دمشق، وقعت بيني وبين نور الدين السخاوي، مدرّس المالكية، صحبة. فرغب مني ان افطر عنده في ليالي رمضان. فحضرت عنده اربع ليالي. ثم اصابتني الحمّى، فغبت عنه، فذهب في طلبي. فاعتذرت بالمرض، فلم يسعني عذراً. فرجعت اليه، وبتّ عنده. فلما اردت

الانصراف بالغد منعني من ذلك، وقال لي : « احسب داري كانها دارك او دار ابيك او اخيك » وامر باحضار طبيب، وان يُصنع لي بداره كل ما يشير به الطبيب من دواء او غذاء. واقمت كذلك عنده الى يوم العيد، وحضرت المصلّى وشفاني الله تعالى مما اصابني. وقد كان ما عندي من النفقة نفد، فعلم بذلك فاكترى لي جمالاً واعطاني الزاد وسواه، وزادني دراهم وقال لي : « تكون لما عسى ان يعنّ لك من امر مهم » جزاه الله خيراً.

الفصل الرابع

البلاد العربية

الحجاز — العراق

خرج ابن بطوطة من دمشق في اول ايلول ١٣٢٦ قاصداً بلاد الحجاز فمرّ بالكَسْوة — الصَنَمين — زُرعة — بُصرى — بركة زيزة — حصن الكرك — معان — ثم دخل الصحراء « التي يقال فيها : داخلها مفقود، وخارجها مولود ». فنزل مع الركب في ذات الحج ثم ساروا الى وادي بلدح، تَبوك، بئر الحِجر، العُلا، وادي العطاس — هدية — الى ان دخلوا المدينة، فوقفوا بباب السلام واخذوا بالصلاة.

ويذكر ابن بطوطة المسجد في المدينة فيقول :

المسجد المعظّم مستطيل، تحفّه من جهاته الاربع بلاطات دائرة به.

ووسطه صحن مفروش بالحصى والرمل؛ ويدور بالمسجد الشريف، شارع مبلّط بالحُجر المنحوتة. والروضة المقدّسة (١)، صلوات الله وسلامه على ساكنها، في الجهة القبلية مما يلي الشرق من المسجد الكريم. وشكلها عجيب لا يتأتى تمثيله. وهي مدوّرة بالرخام البديع النحت، الرائق التعت، قد علاها تضميخ المسك والطيب مع طول الازمان. وفي الصفحة القبلية منها، مسمار فضّة هو قبالة الوجه الكريم. وهناك يقف الناس للسلام مستقبلين الوجه الكريم، مستدبرين القبلة، فيسلّمون وينصرفون يميناً الى وجه ابي بكر الصديق، ورأس ابي بكر (رضه) عند قدمي رسول الله (صلعم). ثم ينصرفون الى عمر بن الخطاب، ورأس عمر عند كتفي ابي بكر (رضه). وفي الجوفي من الروضة المقدّسة، زادها الله طيباً، حوض صغير، مرخّم، في قبلته شكل محراب يقال انه كان بيت فاطمة بنت الرسول (صلعم) ويقال ايضاً هو قبرها، والله اعلم.

وبعد ان يذكر كيفية بناء المسجد، والمنبر ويذكر خطيبه وامامه ويورد بعض الحكايات عن مشاهد المدينة ومزاراتها والمجاورين بها يترك المدينة الى مكة فيمرّ بمسجد ذي الحُلَيفة — الروحاء — الصفراء — بدر — صحراء قاع البزواء — وادي رابغ — خُلَيص — عقبة السويق — بركة خُلَيص — عُسفان — بطن مَرّ — مكة

فوصلنا عند الصباح الى البلد الامين، مكة شرّفها الله تعالى. فوردنا منها على حَرَم الله تعالى، ومُبوّأ خليله ابراهيم، ومبعث صفيه محمد (صلعم). ودخلنا البيت الحرام الشريف، الذي من دخله كان آمناً، من باب بني

١) اي قبر محمد

شيبة، وشاهدنا الكعبة الشريفة، زادها الله تعظيماً، وهي كالعروس تجلى على منصّة الجلال، وترفل في برود الجمال، محفوظة بوفود الرحمان، موصلة الى جنة الرضوان. وطفنا بها طواف القدوم، واستلمنا الحجر الكريم، وصلّينا ركعتين بمقام ابراهيم. وتعلّقنا باستار الكعبة عند الملتزم، بين الباب والحجر الاسود، حيث يُستجاب الدعاء. وشربنا من ماء زمزم وهو لما شُرب، له حسبما ورد عن النبي (صلعم). ثم سعينا بين الصفا والمروة، ونزلنا هنالك بدار بمقربة من باب ابراهيم.

والحمد لله الذي شرّفنا بالوفادة على هذا البيت الكريم، وجعلنا ممن بلغته دعوة الخليل عليه الصلاة والتسليم، ومتّع اعيننا بمشاهدة الكعبة الشريفة والمسجد العظيم، والحجر الكريم، وزمزم والحطيم...

ويلي ذلك بحث واسع في مكة وما فيها من البنايات والمزارات والاولياء، وعوائد اهلها في مختلف مظاهراتهم الدينية. ثم يترك مكة راجعاً في ركب عظيم فيمر بالمدينة ويتابع سفره وجهة العراق فينزل القادسية ثم مدينة

مشهد علي

فننزلنا مدينة مشهد علي بن ابي طالب (رضه) بالنجف. وهي مدينة حسنة في ارض فسيحة، صلبة، من احسن مدن العراق، واكثرها ناساً، وأتقنها بناء. ولها اسواق حسنة نظيفة. دخلناها من باب الحضرة فاستقبلنا سوق البقّالين، والطبّاخين، والخبّازين، ثم سوق الفاكهة، ثم سوق الخيّاطين، والقيسارية، ثم سوق العطّارين، ثم باب الحضرة، حيث القبر الذي يزعمون انه قبر علي، عليه السلام. وبازائه المدارس، والزوايا، والخوانق، معمورة احسن عمارة وحيطانها بالقاشاني، وهو شبه الزليج عندنا، لكن لونه اشرق، ونقشه احسن.

وبعد ان زار ابن بطوطة قبر علي رحل قاصداً البصرة فمرّ بالحَوَرْنَق، موضع سكنى النعمان بن المنذر، فبقائم الواثق الى ان وصل مدينة واسط، وبظاهرها، في قرية ام عبيدة، حضر رقص الفقراء فقال عنهم:

ثم اخذوا في السماع، وقد اعدوا احمالاً من الحطب، فأججوها ناراً ودخلوا في وسطها يرقصون. ومنهم من يتمرّغ فيها، ومنهم من يأكلها بفمه، حتى اطفأوها جميعاً. وهذا دأبهم. وهذه الطائفة الاحمدية مخصوصون بهذا، وفيهم من يأخذ الحيّة العظيمة، فيعض باسنانه على رأسها حتى يقطعه.

مدينة البصرة

فنزلنا بها رباطَ (١ مالك بن دينار. وكنت رأيت عند قدومي عليها، على نحو ميلين منها، بناء عالياً مثل الحصن. فسألت عنه فقيل لي: «هو مسجد علي بن ابي طالب» (رضه). وكانت البصرة من اتساع الخطّة، وانفساح الساحة، بحيث كان هذا المسجد في وسطها. وبينه الان وبينها ميلان، وكذلك بينه وبين السور الاول، المحيط بها، نحو ذلك، فهو متوسّط بينها. ومدينة البصرة احدى امهات العراق... ذات البساتين الكثيرة، والفواكه الاثيرة، توفر قسمها من النضارة والخصب، لما كانت مجمع البحرين: الأجاج والعذب. وليس في الدنيا اكثر نخلاً منها، فيباع التمر في سوقها بحساب اربعة عشر رطلاً عراقية بدرهم، ودرهمهم ثلث النُقرة (٢. ولقد بعث اليّ قاضيها، حُجّة الدين، بقوصرة

---

١) رباط: اي نَزْل

٢) النُقرة: قطعة من نقود فضيّة

تمر، يحملها الرجل على تكلّف؛ فاردت بيعها، فبيعت بتسعة دراهم، اخذ الحمال منها ثلثها عن اجرة حملها من المنزل الى السوق. ويصنع بها من التمر عسل يُسمّى السيلان، وهو طيّب كأنه الجُلّاب.

والبصرة ثلاث محلّات: احداها محلّة هُذَيل... والمحلّة الثانية محلّة بني حرام... والمحلّة الثالثة محلّة العجم... واهل البصرة لهم مكارم اخلاق، واينـاس للغريب، وقيام بحقّه فلا يستوحش فيابينهم غريب. وهم يصلّون الجمعة في مسجد امير المؤمنين علي (رضه) الذي ذكرته، ثم يُسدّ فلا يأتونه الا في الجمعة. وهذا المسجد من احسن المساجد، وصحنه متناهي الانفساح، مفروش بالحصباء التي يؤتى بها من وادي السباع. وفيه المصحف الكريم الذي كان عثمان (رضه) يقرأ فيه لما قُتل، وأثر تغيير الدم في الورقة التي فيها قوله تعالى: «فسيكفيكم الله وهو السميع العليم» (١).

حكاية اعتبار

شهدت مرّةً بهذا المسجد، صلاة الجمعة. فلما قام الخطيب به الى الخطبة وسردها، لحن فيها لحناً كثيراً جليّاً. فعجبت من امره، وذكرت ذلك للقاضي حُجّة الدين. فقال لي: «ان هذا البلد لم يبقَ به من يعرف شيئاً من علم النحو.» وهذه عبرة لمن تفكّر فيها، سبحان مغيّر الاشياء، ومقلّب الامور! هـذه البصرة التي الى اهلها انتهت رئاسة النحو، وفيها اصله وفرعه، ومن اهلها امامه، الذي لا ينكر سبقه، لا يُقيم خطيبها خطبة الجمعة، على دَوبه عليها.

١) القرآن: سورة البقرة: ١٣١

الصومعة التي تتحرّك

ولهذا المسجد سبع صوامع إحداها الصومعة (١ التي تتحرّك، بزعمهم، عند ذكر علي بن ابي طالب (رضه). صعدت اليها من اعلى سطح المسجد، ومعي بعض اهل البصرة. فوجدت في ركن من اركانها مقبض خشب، مستترًا فيها كأنه مقبض ملمسة البناء، فجعل الرجل، الذي كان معي، يده في ذلك المقبض وقال: «بحقّ رأس امير المؤمنين علي (رضه) تحرّكي» وهزّ المقبض، فتحرّكت الصومعة. فجعلت انا يدي في المقبض وقلت له: «وأنا اقول بحق رأس ابي بكر خليفة رسول الله (صلعم) تحرّكي» وهززت المقبض، فتحرّكت الصومعة. فعجبوا من ذلك. واهل البصرة على مذهب السنّة والجماعة ولا يخاف من يفعل مثل فعلي عندهم...

الفصل الخامس

بلاد فارس

ترك ابن بطوطة البصرة الى فارس فرّ بالأبلّة، فعبّادان، فاجول على ساحل الخليج، فرامز، فتستر، «وهي آخر البسيط من بلاد أتابك، واول الجبال» فإيذَج «وهي حضرة السلطان اتابك»

ذكر ملك إيذَج وتستُر

وملك إيـذج في عهد دخولي اليها السلطان أتابك افراسياب ابن

١) اي المأذنة

السلطان أتابك احمد . و« أتابك » عندهم سمة لكل من يلي هذه البلاد من ملك . وتُسمّى هذه البلاد ، بلاد اللور . وولي هذا السلطان بعد اخيه أتابك يوسف . وولي يوسف بعد ابيه أتابك احمد . وكان احمد المذكور ملكاً صالحاً سمعت من السقاة ببلاده انه عمّر اربعمائة وستين زاوية ببلاده منها بحضرة إيذج اربع واربعون . وقسّم خراج بلاده أثلاثاً : فالثلث منه لنفقة الزوايا والمدارس ، والثلث منه لمرتّب العساكر ، والثلث لنفقته ونفقة عياله ، وعبيده وخدّامه . ويبعث منه هدية لملك العراق في كل سنة . وربما وفد عليه بنفسه .

وشاهدت من آثاره الصالحة ببلاده ان اكثرها في جبال شاهخة . وقد نحتت الطرق في الصخور والحجارة ، وسوّيت ووسّعت بحيث تصعدها الدوابّ باحمالها . وطول هذه الجبال مسيرة سبعة عشر في عرض عشرة . وهي شاهقة متّصل بعضها ببعض ، تشقّها الانهار ، وشجرها البلّوط . وهم يصنعون من دقيقه الخبز . وفي كل منزل من منازلها زاوية يسمّونها المدرسة . فاذا وصل المسافر الى مدرسة منها ، أُتي بما يكفيه من الطعام والعلف لدابته سواء طلب ذلك او لم يطلبه . فان عادتهم ان يأتي خادم المدرسة فيعدّ من نزل بها من الناس ، ويعطي كل واحد منهم قُرصين من الخبز ، ولحماً ، وحلواء . وكل ذلك من اوقاف السلطان عليها . وكان السلطان أتابك احمد زاهداً صالحاً ، كما ذكرناه ، يلبس تحت ثيابه ، مما يلي جسده ، ثوب شعر .

موت ابن السلطان

ثم يذكر ان السلطان افراسياب كثير الادمان للخمرة لا يخرج الا يوم الجمعة . ويذكر انه كان له ولد مريض فمات .

ولما كان من الغد دخل عليّ شيخ الزاوية واهل البلد ، وقالوا : « ان كبراء المدينة من القضاة ، والفقهاء ، والاشراف ، والامراء قد ذهبوا الى دار السلطان للعزاء . فينبغي لك ان تذهب في جملتهم . فابيت عن ذلك . فعزموا علي ، فلم يكن لي بدّ من المسير . فسرت معهم ، فوجدت مشوَر (١ دار السلطان ممتلئاً رجالاً وصبياناً من المماليك ، وابناء الملوك ، والوزراء والاجناد ، وقد لبسوا التلاليس (٢ ، وجلال الدوابّ ، وجعلوا فوق رؤوسهم التراب والتبن ، وبعضهم قد جزّ ناصيته ، وانقسموا فرقتين : فرقة باعلى المشوَر ، وفرقة باسفله . وتزحف كل فرقة الى جهة الاخرى ، وهم ضاربون بايديهم على صدورهم ، قائلون : « خوند كارما » ومعناها : « مولاي انا » . فرأيت من ذلك امراً هائلاً ، ومنظراً فظيعاً لم اعهد مثله .

حكاية

ومن غريب ما اتفق لي يومئذٍ اني دخلت فرأيت القضاة والخطباء والشرفاء قد استندوا الى حيطان المشوَر ، وهو غاصٌّ بهم من جميع جهاته ؛ وهم بين باكٍ ومتباكٍ ومُطرق . وقد لبسوا فوق ثيابهم ثياباً خامة ، من غليظ القطن ، غير محكمة الخياطة ، بطائنها الى اعلى ووجوهها مما يلي اجسادهم . وعلى رأس كل واحد منهم قطعة خرقة او مئزر اسود . وهكذا يكون فعلهم الى تمام اربعين يوماً ، وهي نهاية الحزن عندهم .

---

١) مشوَر : محل الاجتماع للشورى

٢) التلاليس : نوع من اللباد السميك

وبعدها يبعث السلطان لكل من فعل ذلك كسوةً كاملة. فلما رأيت جهات المشورَ غاصّةً بالناس نظرت يميناً وشمالاً ارتاد موضعاً لجلوسي، فرأيت هنالك سقيفة مرتفعة عن الارض بمقدار شبر، وفي احدى زواياها رجل منفرد عن الناس، قاعد، عليه ثوب صوف من اللبد يلبسه بتلك البلاد ضعفاء الناس ايام المطر والثلج، وفي الاسفار. فتقدّمت الى حيث الرجل، وانقطع عني اصحابي، لما رأوا اقدامي نحوه، وعجبوا مني، وانا لا علم لي بشيء من حاله. فصعدت السقيفة وسلّمت على الرجل، فردَّ عليَّ السلام، وارتفع عن الارض كأنه يريد القيام، وهم يسنّون ذلك نصف القيام. وقعدت في الركن المقابل له. ثم نظرت الى الناس وقد رموني بابصارهم جميعاً. فعجبت منهم، ورأيت الفقهاء والمشايخ والاشراف مستندين الى الحائط تحت السقيفة. واشار اليَّ احد القضاة ان انحطّ الى جانبه، فلم افعل. وحينئذٍ استشعرت انه السلطان. فلما كان بعد ساعة اتى شيخ المشايخ، نور الدين الكرماني، فصعد الى السقيفة، وسلّم على الرجل فقام اليه، وجلس فيما بيني وبينه. فحينئذٍ علمت ان الرجل هو السلطان.

ثم جيء بالجنازة، وهي بين اشجار الاترج، والليمون، والنارنج، وقد ملأوا اغصانها بثمارها، والاشجار بايدي الرجال فكأن الجنازة تمشي في بستان، والمشاعل في رماح طوال بين يديها والشمع كذلك. فصُلّي عليها، وذهب الناس معها الى مدفن الملوك، وهو بموضع يقال له: «هلاَفيجان» على اربعة اميال من المدينة... ولم استطع ان اذهب معهم لبُعد الموضع.

زيارة السلطان

فلما كان بعد ايام بعث السلطان رسوله يدعوني اليه، فذهبت معه الى باب يُعرف بباب السرو. وصعدنا في درج كثيرة الى ان انتهينا الى موضع لا فرش به لاجل ما هم فيه من الحزن، والسلطان جالس فوق مخدّة، وبين يديه آنيتان قد غُطيتا، احداهما من الذهب، والاخرى من الفضة. وكانت بالمجلس سجّادة خضراء، فُفرشت لي بالقرب منه، وقعدت عليها. وليس بالمجلس الا حاجبه الفقيه محمود، ونديم له لا اعرف اسمه. فسألني عن حالي وبلادي، وسألني عن الملك الناصر، وبلاد الحجاز، فاجبته عن ذلك.

ثم جاء فقيه كبير هو رئيس فقهاء تلك البلاد، فقال لي السلطان: «هذا مولانا فضيل.» والفقيه ببلاد الاعاجم كلها انما يخاطب بمولانا وبذلك يدعوه السلطان وسواه؛ ثم اخذ في الثناء على الفقيه المذكور. وظهر لي ان السكر غالب عليه، وكنت قد عرفت ادمانه على الخمر. ثم قال لي باللسان العربي، وكان يحسنه: «تكلّم». فقلت له: «ان كنت تسمع مني، اقول لك انت من اولاد السلطان أتابك احمد المشهور بالصلاح والزهد. وليس فيك ما يقدح في سلطنتك غير هذا» واشرت الى الآنيتين. فخجل من كلامي وسكت. واردت الانصراف، فامرني بالجلوس وقال لي: «الاجتماع مع امثالك رحمة» ثم رأيته يتمايل، ويريد النوم، فانصرفت.

وكنت تركت نعلي بالباب، فلم اجده. فنزل الفقيه محمود في طلبه، وصعد الفقيه فضيل يطلبه في داخل المجلس، فوجده في طاقٍ هنالك، فاتى

اليَّ به . فأخجلني برّه واعتذرت اليه . فقبّل نعلي حينئذٍ ووضعه على رأسه، وقال لي: « بارك الله فيك ! هذا الذي قلته لسلطاننا، لا يقدر احد ان يقوله له غيرك . والله اني لارجو ان يؤثر ذلك فيه ! »

ثم رحل عن بلاد إيذج الى أشتركان، فأتى فيروزان حتى وصل الى مدينة اصفهان

ومدينة اصفهان من كبار المدن وحسانها . الا انها الآن قد خرب اكثرها بسبب الفتنة التي بها بين اهل السنة والروافض؛ وهي متصلة بينهم حتى الان، فلا يزالون في قتال . وبها الفواكه الكثيرة، ومنها المشمش الذي لا نظير له، يسمّونه بقمر الدين، وهم يتّسونه ويدّخرونه، ونواه ينكسر عن لوز حلو . ومنها السفرجل الذي لا مثل له في طيب المطعم وعظم الجرم؛ والاعناب الطيبة، والبطيخ العجيب الشان، الذي ليس في الدنيا مثله، الا ما كان من بطيخ بُخارى وخوارزم، وقشره اخضر وداخله احمر، ويُدّخر كما تدّخر الشريحة بالمغرب، وله حلاوة شديدة . ومن لم يكن الف اكله فانه في اول امره يُسهله، وكذلك اتفق لي لما اكلته باصفهان .

واهل اصفهان حسان الصور، والوانهم بيض زاهرة مشوبة بالحمرة . والغالب عليهم الشجاعة والنجدة، وفيهم كرم وتنافس عظيم فيما بينهم في الاطعمة، تؤثر عنهم فيه اخبار غريبة .

وسار من اصفهان الى كليل وهي بلدة يكثر فيها التفاح، فصرماء، فبَرْدُخاص، وفيها يُصنع الجبن الطيب، فما بين وفيها جوز كثير .

شيراز

ثم سافرنا منها الى مدينة شيراز . وهي مدينة اصلية البناء، فسيحة الارجاء، شهيرة الذكر، منيفة القدر، لها البساتين المونقة، والانهار المتدفقة، والاسواق البديعة، والشوارع الرفيعة . وهي كثيرة العمارة، متقنة المباني، عجيبة الترتيب . واهل كل صناعة في سوقها، لا يخالطهم غيرهم .

واهلها حسان الصور، نظاف الملابس . وليس في المشرق بلدة تداني مدينة دمشق في حسن اسواقها وبساتينها، وانهارها، وحسن صور ساكنيها الا شيراز . وهي في بسيط من الارض تحفّ بها البساتين من جميع الجهات . وتشقّها خمسة انهار احدها النهر المعروف « بركن آباد » وهو عذب الماء شديد البرودة في الصيف، سخن في الشتاء؛ فينبعث من عين في سفح جبل هنالك يسمّى القليعة .

ومسجدها الاعظم يسمّى بالمسجد العتيق، وهو من اكبر المساجد ساحة، واحسنها بناء . وصحنه متّسع مفروش بالمرمر؛ ويغسل في اوان الحرّ كل ليلة . ويجتمع فيه كبار اهل المدينة كل عشية، ويصلّون به المغرب والعشاء . وبشماله باب يُعرف «بباب حسن» يفضي الى سوق الفاكهة . وهي من ابدع الاسواق، وانا اقول بتفضيلها على سوق « باب البريد » من دمشق .

واهل شيراز اهل صلاح ودين وعفاف . وخصوصاً نساؤها، وهنّ يلبسن الخفاف، ويخرجن متلحفات، متبرقعات؛ فلا يظهر منهنّ شيء . ولهنّ الصدقات والايثار . ومن غريب حالهنّ انهنّ يجتمعن لسماع الواعظ

كل يوم اثنين، وخميس، وجمعة بالجامع الاعظم؛ فربما اجتمع منهنّ الالف والالفان، بايديهنّ المراوح يروّحن بها على انفسهنّ من شدّة الحرّ. ولم ارَ اجتماع النساء في مثل عددهنّ في بلدة من البلاد.

ذكر سلطان شيراز

وسلطان شيراز في عهد قدومي عليها الملك الفاضل ابو اسحق بن محمد شاه يَنجُو، سمّاه ابوه باسم الشيخ ابي اسحق الكازروني، نفع الله به. وهو من خيار السلاطين، حسن الصورة، والسيرة، والهيئة؛ كريم النفس، جميل الاخلاق، متواضع، صاحب قوّة، وملك كبير، وعسكره ينيف على خمسين الفاً من الترك والاعاجم. وبطانته الادنون اليه اهل اصفهان. وهو لا يأتمن اهل شيراز على نفسه، ولا يستخدمهم، ولا يقرّبهم، ولا يبيح لاحد منهم حمل السلاح. لانهم اهل نجدة وبأس شديد، وجرأة على الملوك. ومن وُجد بيده السلاح عُوقب. ولقد شاهدت مرّة رجلاً تجرّه الجنادرة، وهم الشُرَط، الى الحاكم، وقد ربطوه في عنقه. فسألت عن شأنه فأُخبرت انه وُجدت في يده قوس بالليل. فذهب السلطان المذكور الى قهر اهل شيراز وتفضيل الاصفهانيين عليهم، لانه يخافهم على نفسه.

ثلاث حكايات عن ملك الهند

وهنا يذكر ابن بطوطة سخاء السلطان ابي اسحق وتشبّهه بملك الهند ولكنه يقول ان سلطان شيراز ابعد من ان يلحق بذلك ويورد هذه الحكايات برهاناً على زعمه:

حكاية

ومن عجيب فعل ملك الهند مع الخراسانيين انه قدم عليه رجل من فقهاء خراسان، هروي الدار، من سكّان خوارزم، يُسمّى بالامير عبد الله بعثته الخاتون ترابَك، زوج الامير قُطلوغْمور، صاحب خوارزم، بهدية الى ملك الهند المذكور. فقبلها وكافأ عنها باضعافها، وبعث ذلك اليها. واختار رسولها المذكور الاقامة عنده فصيّره في ندمائه. فلما كان ذات يوم قال له: «ادخل الى الخزانة، فارفع منها قدر ما تستطيع ان تحمله من الذهب» فذهب الى داره فاتى بثلاث عشرة خريطة، وجعل في كل خريطة قدرَ ما وسعته. وربط كل خريطة بعضو من اعضائه؛ وكان صاحب قوّة. وقام بها. فلما خرج عن الخزانة وقع، ولم يستطع النهوض. فامر السلطان بوزن ما خرج به. فكان جملته ثلاثة عشر منّاً بمنّ دهلي. والمنّ الواحد منها خمسة وعشرون رطلاً مصريّة. فامره ان يأخذ جميع ذلك، فاخذه وذهب به.

حكاية تناسبها

اشتكى مرّة امير بخت، الملقّب بشرف الملك الخراساني، بحضرة ملك الهند. فاتاه الملك عائداً. ولما دخل عليه، اراد القيام، فحلف له الملك ان لا ينزل عن كتّه، والكت هو السرير. ووضع للسلطان مُتّكأة يسمّونها «الورة»، فقعد عليها. ثم دعا بالذهب والميزان، فجيء بذلك. وامر المريض ان يقعد في احدى كفتي الميزان. فقال: «يا خوند عالَم (١)،

١) يعني: يا ملك العالم

لو علمت انك تفعل هذا ، للبست عليّ ثياباً كثيرة ». فقال له : « البس الان جميع ما عندك من الثياب ». فلبس ثيابه المعدَّة للبرد المحشوَّة بالقطن ، وقعد في كفة الميزان ، ووضع الذهب في الكفة الاخرى حتى رجحه الذهب . وقال له : « خذ هذا فتصدّق به عن رأسك » وخرج عنه .

حكاية تناسبهما

وفد عليه الفقيه عبد العزيز الاردويلي ، وكان قد قرأ علم الحديث بدمشق وتفقَّه فيه ، فجعل مرتّبه مائة دينار دراهم في اليوم وصرف ذلك خمسة وعشرون ديناراً ذهباً . وحضر مجلسه يوماً ، فسأله السلطان عن حديث ، فسرد له احاديث كثيرة في ذلك المعنى . فاعجبه حفظه ، وحلف له برأسه انه لا يزول من مجلسه ، حتى يفعل معه ما يراه . ثم نزل الملك عن مجلسه فقبّل قدميه ، وامر باحضار صينيّة ذهب ، وهي مثل الطيفور الصغير ، وامر ان يُلقى فيها الف دينار من الذهب . واخذها السلطان بيده ، فصبّها عليه . وقال : « هي لك مع الصينيّة ».

وترك شيراز فنزل ببلاد الشول ، « وهم طائفة من الاعاجم يسكنون البرية وفيهم الصالحون » فكازرون ، فدينة الزَّيْدَين ، فالحُوَيزاء ، فالكوفة .

الفصل السادس

العراق وديار بكر

مدينة الكوفة

وهي احدى امهات البلاد العراقية ، المتميّزة فيها بفضل المزيّة ، مثوى الصحابة والتابعين ، ونزل العلماء والصالحين ، وحضرة علي بن ابي طالب امير المؤمنين . الّا ان الخراب استولى عليها ، بسبب ايدي العُدوان التي امتدَّت اليها . وفسادها من عرب خَفاجة ، المجاورين لها ، فانهم يقطعون طريقها . ولا سور عليها ، وبناؤها بالآجرّ ، واسواقها حسان . واكثر ما يباع فيها التمر والسمك . وجامعها الاعظم جامع كبير ، شريف . بلاطاته سبعة قائمة على سواري حجارة ضخمة منحوتة ، قد صنعت قطعاً ، ووضع بعضها على بعض ، وافرغت بالرصاص ؛ وهي مفرطة الطول . وبهذا المسجد آثار كريمة : فمنها بيت إزاء المحراب ، عن يمين مستقبل القبلة ، يقال ان الخليل ، صلوات الله عليه ، كان له مصلّى بذلك الموضع . وعلى مقربة منه محراب محلّق عليه باعواد الساج ، مرتفع ، وهو محراب علي بن ابي طالب (رضه) وهناك ضربه الشقي ابن مُلجم ، والناس يقصدون الصلاة به . . .

قبر ابن ملجَم (١.

ورأيت بغربي جبـّانة الكوفة موضعاً مسودّاً، شديد السواد، في بسيط ابيض. فـأُخبرت انه قبر الشقي ابن مُلجَم، وان اهل الكوفة يأتون كل سنة بالحطب الكثير فيوقدون النـار، على موضع قبره سبعة ايام.

صاحب الزمان

ثم قصد الى بغداد فنزل بثر مِلّاحة، فمدينة الحِلّة، غربي الفرات.

واهلها إمامية اثنا عشرية، وهم طائفتان: احداهما تعرف بالاكراد، والاخرى تُعرف باهل الجامعين، والفتنة بينهم متصلة، والقتال قائم ابدًا. وبقربـة من السوق الاعظم، بهذه المدينة، مسجد على بابه ستر حرير مسدول، وهم يسمونه «مشهد صاحب الزمان». ومن عاداتهم انه يخرج، في كل ليلة، مائة رجـل من اهل المدينة عليهم السلاح وبأيديهم السيوف مشهورة، فيأتون امـيرَ المدينة بعد صلاة العصر، فيـأخذون منه فرساً مسرجاً ملجماً او بغلة كذلك، ويضربون الطبول، والانفار، والبوقات، امام تلك الدابّة. ويتقدّمها خمسون منهم، ويتبعها مثلهم. ويمشي آخرون عن يمينها وشمالها؛ ويأتون مشهد صاحب الزمان فيقفون بالباب ويقولون: «باسم الله، يا صاحب الزمان، باسم الله، اخرج. قد ظهر الفساد، وكثر الظلم، وهـذا اوان خروجك فيعرف الله بك بين الحق والباطل». ولا يزالون كذلك وهم يضربون الابواق، والاطبـال، والانفار الى صلاة

١) هو قاتل علي بن ابي طالب في ١٧ رمضان سنة ٦٦٠. (٦٦١) (اطلب الجزء الاول من «الروائع» في علي بن ابي طالب، ص: ط)

المغرب. وهم يقولون ان محمد بن الحسن العسكري (١ دخل ذلك المسجد وغاب فيه، وانه سيخرج، وهو الامام المنتظر عندهم.

مدينة بغداد

مدينة دار السلام، وحضرة الاسلام، ذات القدر الشريف، والفضل المنيف، مثوى الخلفاء، ومقرّ العلماء.

وبعد ان يذكر قول ابن جُبير، واقوال الشعراء، يتم وصفه قائلًا:

ولبغداد جسران... والناس يعبرونها ليلًا ونهارًا، رجالاً ونساء. فهم في ذلك في نزهة متصلة وببغداد من المساجد التي يُخطب فيها وتُقام فيها الجمعة احـد عشر مسجداً: منها بالجانب الغربي ثمانية، وبالجانب الشرقي ثلاثة. والمساجد سواها كثيرة جداً وكذلك المدارس، الا انها خربت. وحمّامات بغداد كثيرة، وهي من ابدع الحمّامات. واكثرها مطليّة بالقار مسطّحة به، فيخيّل لرائيه انه رخام اسود. وهذا القار يُجلب من عين بين الكوفة والبصرة، تُنبع ابدًا به. ويصير في جوانبها كالصاصال، فيجرف منها، ويُجلب الى بغداد.

طريقة الاستحمام

وفي كل حمـام منها خلوات كثيرة، كل خلوة منها مفروشة بالقار، مطليّ نصف حائطها مما يلي الارض به، والنصف الاعلى مطليّ بالجصّ الابيض الناصع. فالضدان بها مجتمعان، متقابل حسنها. وفي داخل كلّ

١) هو في زعم البعض ابن الحسن العسكري (٨٤٦–٨٧٤) وهذا ابن ابي الحسن علي بن محمد العسكري (٨٢٨–٨٦٨) عاشر امام في مذهب الشيعيين. اما وجود محمد المذكور فينكره الكثيرون من اتباع المذاهب الاسماعيلية المتعدّدة.

خلوة، حوض من الرخام فيه انبوبان: احدهما يجري بالماء الحار، والاخر بالماء البارد. فيدخل الانسان الخلوة منها منفرداً لا يشاركه احد الّا ان اراد ذلك. وفي زاوية كل خلوة ايضاً حوض آخر للاغتسال، فيه ايضاً انبوبان يجريان بالحارّ والبارد. وكل داخل يُعطى ثلاثاً من الفوَط: احداها يتّزر بها عند دخوله، والاخرى يتّزر بها عند خروجه، والاخرى ينشّف بها الماء عن جسده. ولم ارَ هذا الاتقان كله في مدينةٍ سوى بغداد. وبعض البلاد تقاربها في ذلك.

ثم يتبسط في وصف جانبي بغداد وقبور الخلفاء والعلماء فيها. ويوافق وصوله الى بغداد كون ملك العراقين وخراسان بها وهو ابو سعيد بَهادُر خان، فيذكره وخلفاءه مع طريقة سفر سلاطين العراق

مدينة الموصل

وهي مدينة عتيقة كثيرة الخصب. وقلعتها المعروفة بالحَدْباء، عظيمة الشأن، شهيرة الامتناع، عليها سور محكَم البناء، مشيَّد البروج. وتتصل بها دور السلطان. وقد فصل بينها وبين البلد شارع متّسع مستطيل من اعلى البلد الى اسفله. وعلى البلد سوران اثنان وثيقان، ابراجها كثيرة متقاربة. وفي باطن السور بيوت بعضها على بعض مستديرة بجداره، قد تمكّن فتحها فيه لسعته. ولم ارَ في اسوار البلاد مثله، الا السور الذي على مدينة دهلي، حضرة ملك الهند.

وللموصل ربض كبير فيه المساجد، والحمّامات، والفنادق، والاسواق. وبه مسجد جامع على شطّ الدجلة تدور به شبابيك حديد، وتتصل به مصاطب تُشرف على دجلة، في النهاية من الحسن والاتقان. وامامه

مارستان. وبداخل المدينة جامعان: احدهما قديم والآخر حديث، وفي صحن الحديث منهما قبة في داخلها خصّة (١ رخام، مثمّنة، مرتفعة على سارية رخام، يخرج منها الماء بقوّة وانزعاج، فيرتفع مقدار القامة ثم ينعكس، فيكون له مرأى حسن. وقيسارية الموصل مليحة لها ابواب حديد، ويدور بها دكاكين وبيوت بعضها فوق بعض، متقنة البناء.

وخرج من الموصل فشاهد آثار مدينة نينوى، فعين الرصد، فالمويلحة، فجزيرة ابن عمر، فجبل الجودي، فمدينة نصيبين، فمدينة سنجار التي «تشبه دمشق في كثرة انهارها وبساتينها» فمدينة دارا، فمدينة ماردين «وبها تُصنع الثياب المنسوبة اليها من الصوف المعروف بالمَرْعِزّ، ولها قلعة شمّاء».

ثم عاد الى الموصل فبغداد ومنها قصد الحجّ ثانية الى مكة فاقام بها ثلاث سنوات، وكان قد أُصيب بمرض فشفي منه

الفصل السابع

افريقيا الشرقية — اليمن

وخرج من مكة الى اليمن فنزل جدّة «وهي نصف الطريق ما بين مكة وجُدّة». ثم ابحر من جُدّة قاصداً افريقيا الشرقية.

حكاية

ولما ركبنا البحر امر الشريف منصور احد غلمانه ان يأتيه بعديلة

١) خصّة: بركة

دقيق، وهي نصف حمل، وبطة سمن، يأخذهما من جلب اهل اليمن. فأخذهما واتى بهما اليه. فاتاني التجار باكين، وذكروا لي ان في جوف تلك العديلة عشرة الآف درهم نُقرة (١)، ورغبوا مني ان اكلّمه في ردّها وان يأخذ سواها. فأتيته وكلّمته في ذلك وقلت له: «ان للتجار في جوف هذه العديلة شيئاً». فقال: «ان كان سكّرًا (٢ فلا اردّه اليهم، وان كان سوى ذلك فهو لهم» ففتحوها، فوجدوا الدراهم فردّها عليهم.

تغيّر الريح

ثم سافرنا في هذا البحر بالريح الطيبة يومين. وتغيّرت الريح بعد ذلك وصدّتنا عن السبيل التي قصدناها. ودخلت امواج البحر معنا في المركب، واشتدّ الميد بالناس ولم نزل في اهوال حتى خرجنا في مرسى يُعرف «برأس دواثر» فيما بين عيذاب وسواكن.

فنزلنا به، ووجدنا بساحله عريش قصب على هيئة مسجد، وفيه كثير من قشور بيض النعام مملوءة ماء، فشربنا منه وطبخنا. ورأيت بذلك المرسى عجباً، وهو خور مثل الوادي يخرج من البحر، فكان الناس يأخذون الثوب، ويمسكون باطرافه، ويخرجون به، وقد امتلأ سمكاً كل سمكة منها قدر الذراع. ويعرفونه بالبوري. فطبخ منه الناس كثيرًا، واشتوَوا. وقصدت الينا طائفة من البجاة (٣ . . . فاكترينا منهم الجمال وسافرنا معهم في برّية، كثيرة الغزلان، والبجاة لا يأكلونها، فهي

١) نقرة: اي فضّة
٢) سكّرًا: اي خمرًا
٣) راجع (ص: ٣٩)

تأنس بالآدمي ولا تنفر منه. وبعد يومين من مسيرنا وصلنا الى حيّ من العرب، يُعرفون بأولاد كاهل، مختلطين بالبجاة عارفين بلسانهم.

جزيرة سواكن

وفي ذلك اليوم وصلنا الى جزيرة سواكن، وهي على نحو ستة اميال من البرّ. ولا ماء بها، ولا زرع، ولا شجر. والماء يُجلب اليها في القوارب، وفيها صهاريج يجتمع بها المطر. وهي جزيرة كبيرة، وبها لحوم النعام، والغزلان، وحُمر الوحش، والمعز عندهم كثير؛ والالبان، والسمن، ومنها يُجلب الى مكة، وحبوبهم الجرجور، وهو نوع من الذُرة كبير الحبّ، يُجلب منه ايضاً الى مكة.

وركب ابن بطوطة البحر الى اليمن فمرّ على مدينة حَلي، وسكّانها من العرب من بني حرام وبني كنانة، وسرجة، وزبيد وهي اكبر المدن بعد صنعاء، وجُبلة، وتعز.

ذكر سلطان اليمن

وهو السلطان الماجد نور الدين علي بن السلطان المؤيّد... ابن رسول. وجدّه يسمّى برسول لان احد خلفاء بني العبّاس ارسله الى اليمن ليكون بها اميرًا؛ ثم استقل اولاده بالملك. وله ترتيب عجيب في قعوده، وركوبه...

فلما كان في اليوم الرابع، وهو يوم الخميس، وفيه يجلس السلطان لعامّة الناس، دخل بي (القاضي) عليه، فسلّمت عليه. وكيفية السلام عليه ان يمسّ الانسان الارض بسبّابته ثم يرفعها الى رأسه ويقول: «ادام الله

عزّك ! » ففعلت كمثل ما فعله القاضي. وقعد القاضي عن يمين الملك وامرني فقعدت بين يديه. فسألني عن بلادي، وعن مولانا امير المسلمين، جواد الاجواد ابي سعيد (رضه) وعن ملك مصر، وملك العراق، وملك اللور، فاجبته عمّا سأل من احوالهم. وكان وزيره بين يديه، فامره باكرامي وانزالي.

وترتيب قعود هذا الملك انه يجلس فوق دُكانة(١ مفروشة، مزيّنة بثياب الحرير، وعن يمينه ويساره اهل الصلاح. ويليه منهم اصحاب السيوف والدرق، ويليهم اصحاب القسيّ، وبين يديهم، في الميمنة والميسرة، الحاجب، وارباب الدولة، وكاتب السرّ. وامير جندار على رأسه، والشاوُشيّة، وهم من الجنادرة (٢، وقوف على بعد. فاذا قعد السلطان، صاحوا صيحةً واحدة: « بسم الله ! » فاذا قام، فعلوا مثل ذلك. فيعلم جميع من بالمشوَر وقت قيامه ووقت قعوده. فاذا استوى قاعداً، دخل كل من عادتُه ان يسلّم عليه، فسلّم ووقف حيث رُسم له، في الميمنة او الميسرة، لا يتعدّى احد موضعه ولا يقعد الا من أُمر بالقعود؛ يقول السلطان للامير جندار: « مُر فلاناً يقعد ». فيتقدّم ذلك المأمور بالقعود عن موقفه قليلًا ويقعد على بساط هنالك، بين ايدي القائمين في الميمنة والميسرة.

ثم يؤتى بالطعام وهو طعامان: طعام العامّة، وطعام الخاصّة. فأمّا الطعام الخاصّ فيأكل منه السلطان، وقاضي القضاة، والكبار من الشرفاء

١) راجع: (ص: ١٥ حاشية: ٢)
٢) اي رجال الشحنة

ومن الفقهاء والضيوف، واما الطعام العام فيأكل منه سائر الشرفاء والفقهاء والقضاة والمشايخ والامراء ووجوه الاجناد. ومجلس كل انسان للطعام معيّن لا يتعدّاه، ولا يزاحم احد منهم احداً.

وعلى مثل هذا الترتيب سواء هو ترتيب ملك الهند في طعامه. فلا اعلم ان سلاطين الهند اخذوا ذلك عن سلاطين اليمن ام سلاطين اليمن اخذوه عن سلاطين الهند.

واقمت في ضيافة سلطان اليمن اياماً، واحسن اليّ، واركبني.

مدينة صنعاء

وانصرفت مسافراً الى مدينة صنعاء. وهي قاعدة بلاد اليمن الاولى. مدينة كبيرة، حسنة العمارة، بناؤها بالآجرّ والجصّ. وهي كثيرة الاشجار والفواكه والزرع، معتدلة الهواء، طيّبة الماء. ومن الغريب ان المطر ببلاد الهند، واليمن، والحبشة، انما ينزل في ايام القيظ، واكثر ما يكون نزوله بعد الظهر من كل يوم في ذاك الاوان. فالمسافرون يستعجلون عند الزوال لئلّا يصيبهم المطر، واهل المدينة ينصرفون الى منازلهم، لان امطارها وابلة متدفّقة. ومدينة صنعاء مفروشة(١ كلها، فاذا نزل المطر غسل جميع ازقّتها، وانقاها.

مدينة عدن

ثم سافرت منها الى مدينة عَدَن، مرسى بلاد اليمن على ساحل البحر الاعظم. والجبال تحفّ بها، ولا مدخل اليها الا من جانب واحد. وهي مدينة كبيرة، ولا زرع بها، ولا شجر، ولا ماء. وبها صهاريج يجتمع فيها

١) مفروشة: اي مبلّطة

الماء ايام المطر. والماء على بعد منها، فربما منعته العرب، وحالوا بين اهل المدينة وبينه، حتى يصانعوهم بالماء والثياب. وهي شديدة الحرّ.

وهي مرسى اهل الهند تأتي اليها المراكب العظيمة من كُنْبايت، وتانَة، وكُولَم، وقالقوط، وفندرابنة، والشاليات، ومَنْجَرُور، وفاكنور، وهِنَوْر، وسندبور، وغيرها. وتجّار الهند ساكنون بها، وتجار مصر ايضاً.

واهل عدن ما بين تجار، وما بين حمّالين، وصيّادين للسمك. وللتجار منهم اموال عريضة، وربما يكون لاحدهم المركب العظيم بجميع ما فيه لا يشاركه فيه غيره، لسعة ما بين يديه من الاموال. ولهم في ذلك تفاخُر ومباهاة.

كتابخانه خصوصی
غلامحسين - سرود

حكاية

ذُكر لي ان بعضهم بعث غلاماً له، ليشتري له كبشاً. وبعث آخر منهم غلاماً له برسم ذلك ايضاً. فاتفق انه لم يكن بالسوق، في ذاك اليوم، الا كبش واحد، فوقعت المزايدة فيه بين الغلامين. فانتهى ثمنه الى اربعمائة دينار، فاخذه احدهما وقال: «ان رأس مالي اربعمائة دينار، فان اعطاني مولاي ثمنه فحسن. والّا دفعت فيه رأس مالي، ونصرت نفسي، وغلبت صاحبي». وذهب بالكبش الى سيده. فلما عرف سيده بالقضية اعتقه، واعطاه الف دينار. وعاد الآخر الى سيّده خائباً، فضربه، واخذ ماله، ونفاه عنه.

مدينة زيلع

وسافرت من مدينة عدن في البحر اربعة ايام، ووصلت الى مدينة

زيلع وهي مدينة البربرة. وهم طائفة من السودان، شافعية المذهب، وبلادهم صحراء مسيرة شهرين. اولها زيلع وآخرها مَقدَشو. ومواشيهم الجمال، ولهم اغنام مشهورة السِمَن. واهل زيلع سود الالوان، واكثرهم رافضة. وهي مدينة كبيرة لها سوق عظيمة. الّا انها اقذر مدينة في المعمور، واوحشها، واكثرها نُتناً. وسبب نتنها كثرة سمكها، ودماء الابل التي ينحرونها في الازقّة. ولما وصلنا اليها اخترنا المبيت بالبحر، على شدّة هوله، ولم نبت بها لقذرها.

مدينة مَقدَشو

ثم سافرنا منها في البحر خمس عشرة ليلة، ووصلنا مقدَشو. وهي مدينة متناهية في الكبر، واهلها لهم جمال كثيرة ينحرون منها المئين في كل يوم، ولهم اغنام كثيرة. واهلها تجار اقوياء. وبها تُصنع الثياب المنسوبة اليها التي لا نظير لها، ومنها تُحمل الى ديار مصر وغيرها.

ومن عادة اهل هذه المدينة انه متى وصل مركب الى المرسى، تصعد الصنابق، وهي القوارب الصغار، اليه. ويكون في كل صنبوق جماعة من شبان اهلها. فيأتي كل واحد منهم بطبَق مغطى، فيه الطعام. فيقدّمه لتاجر من تجار المركب ويقول: «هذا نزيلي». وكذلك يفعل كل واحد منهم. ولا ينزل التاجر من المركب الا الى دار نزيله من هؤلاء الشبّان، الّا من كان كثير التردّد الى البلد وحصلت له معرفة اهله، فانه ينزل حيث شاء. فاذا نزل عند نزيله، باع له ما عنده واشترى له. ومن اشترى منه ببَخْس او باع منه بغير حضور نزيله، فذلك البيع مردود عندهم. ولهم منفعة في ذلك.

ذكر سلطان مَقْدَشو

وسلطان مقدشو يقولون له الشيخ، واسمه ابو بكر ابن الشيخ عمر، وهو في الاصل من البربرة، وكلامه بالمقدشي، ويعرف اللسان العربي...

زاره ابن بطوطة مع القاضي فاستقبله

واتى (الغلام) بطبق فيه اوراق التنبول (١ والفَوْفِل (٢، فاعطاني عشرة اوراق مع قليل من الفوفل، واعطى القاضي كذلك، واعطى لاصحابي ولطلبة القاضي ما بقي في الطبق. وجاء بقُمقُم من ماء الورد الدمشقي، فسكب عليَّ وعلى القاضي...

وطعامهم الارز المطبوخ بالسمن يجعلونه في صحفة خشب كبيرة، ويجعلون فوقه صحاف الكوشان وهو الإدام من الدجاج، واللحم، والحوت، والبقول. ويطبخون الموز قبل نضجه في اللبن والحليب، ويجعلونه في صحفة، ويجعلون اللبن المريَّب في صحفة، ويجعلون عليه الليمون المصيَّر، وعناقيد الفلفل المصيَّر، المخلَّل والمملوح، والزنجبيل (٣ الاخضر، والعنبا، وهي مثل التفاح ولكن لها نواة. وهي اذا نضجت شديدة الحلاوة، وتؤكل كالفاكهة. وقبل نضجها حامضة كالليمون يصيّرونها في الخلّ. وهم اذا اكلوا لقمة من الارز، اكلوا بعدها من هذه الموالح والمخلَّلات.

---

١) التنبول: (انظر ص: ٨٠)

٢) الفوفل: نوع من النخل طويل الساق يثمر جوزًا تبلغ الواحدة منه حجم البيضة. — ٣) الزنجبيل نوع من الاعشاب، القوية الرائحة، تزهر في سنبلة مجتمعة، تستعمل كالافاويه والاجار

والواحد من اهل مقدشو يأكل قدر ما تأكله الجماعة منا، عادةً لهم. وهم في نهاية من ضخامة الجسم وسمنها...

(ثم) اتوني بكسوة. وكسوتهم فوطة خزّ يشدّها الانسان في وسطه عوض السراويل فانهم لا يعرفونها، ودراعة من المقطع المصري معلَمة، وفَرْجيَّة من القدسي مبطَّنة، وعمامة مصرية معلَمة.

جزيرة مَنْبَسى

ثم ركبت البحر من مدينة مقدشو متوجهاً الى بلاد السواحل، قاصداً مدينة كُلوا من بلاد الزنوج، فوصلنا الى جزيرة مَنْبَسى. وهي جزيرة كبيرة، بينها وبين ارض السواحل مسيرة يومين في البحر، ولا برّ لها. واشجارها الموز، والليمون، والأُترج. ولهم فاكهة يسمّونها «الجمّون»، وهي شبه الزيتون، ولها نوىً كنواه، الا انها شديدة الحلاوة. ولا زرع عند اهل هذه الجزيرة، وانما يُجلب اليهم من السواحل. واكثر طعامهم الموز والسمك. وهم شافعية المذهب، اهل دين وعفاف وصلاح.

كُلُوَا

وركبنا البحر الى مدينة كُلوَا، وهي مدينة عظيمة ساحلية، اكثر اهلها الزنوج المستحكمو السواد ولهم شراطات في وجوههم كما هي في وجوه اليمنيين من جنادة.

وذكر لي بعض التجار ان مدينة سُفالة على مسيرة نصف شهر من مدينة كُلوَا، وان بين سُفالة ويوفي، من بلاد اليمنيين، مسيرة شهر. ومن يوفي يؤتى بالتبر الى سُفالة.

ومدينة كُلوَا من احسن المدن، واتقنها عمارة، وكلها بالخشب وسقف بيوتها الديس(١)، والامطار بها كثـ وهم اهل جهاد لانهم في برّ واحد متصل مع كفّار الزنوج، والغالب عليهم الدين والصلاح، وهم شافعية المذهب.

الفصل الثامن

الرجوع الى جزيرة العرب

ظَفَار الحموض

وركبنا البحر من كُلوَا الى مدينة ظفار الحموض، وهي آخر بلاد اليمن على ساحل البحر الهندي. ومنها تحمل الخيل العتاق الى الهند. ويقطع البحر فيما بينها وبين بلاد الهند، مع مساعدة الريح، في شهر كامل. وقد قطعته مرّة من قالقوط، من بلاد الهند الى ظفار في ثمانية وعشرين يوماً بالريح الطيبة، لم ينقطع لنا جرى بالليل ولا بالنهار وبين ظفار وعدن، في البرّ، مسيرة شهر، في صحراء. وبينها وبين حضرَموت ستة عشر يوماً. وبينها وبين عُمان عشرون يوماً.

ومدينة ظفار في صحراء منقطعة لا قرية بها ولا عمالة لها، والسوق خارج المدينة برَبَض يُعرف بالحرجاء؛ وهي من اقذر الاسواق، واشدّها

١) الديس: نوع من القصب

نتناً، واكثرها ذباباً، لكثرة ما يُباع بها من الثمرات والسمك. واكثر سمكها النوع المعروف بالسَرْدين، وهو بها في النهاية من السِمَن. ومن العجائب ان دوابهم انما علفها من هذا السردين، وكذلك غنمهم. ولم ارَ ذلك في سواها. واكثر باعتها الخَدَم، وهنّ يلبسن السواد.

وزرع اهلها الذرة وهم يسقونها من آبار بعيدة الماء. ولهم قمحٌ يسمّونه «العَلَس» وهو نوع من السُلت. والارز يُجلب اليهم من بلاد الهند وهو اكثر طعامهم. ودراهم هذه المدينة من النحاس والقصدير ولا تنفق في سواها. وهم اهل تجارة لا عيش لهم الا منها... وهم اهل تواضع، وحسن اخلاق، وفضيلة، ومحبّة للغرباء.

ولباسهم القطن، وهو يُجلب اليهم من بلاد الهند، ويشدّون الفوَط في اوساطهم، عِوض السِروال، واكثرهم يشدُّ فوطة في وسطه، ويجعل فوق ظهره أُخرى من شدّة الحرّ. ويغتسلون مرّات في اليوم. ويُصنع بها ثياب من الحرير، والقطن، والكتّان حسان جداً. والغالب على اهلها رجالاً ونساء، المرض المعروف بداء الفيل وهو انتفاخ القدمين...

ولهذه المدينة بساتين فيها موز كثير، كبير الجرم، وزُنت بمحضري حبة منه، فكان وزنها اثنتي عشرة اوقية. وهو طيب المطعم شديد الحلاوة. وبها ايضاً التَنبُول والنارجيل، المعروف بجوز الهند، ولا يكونان الا ببلاد الهند، وبمدينة ظفار هذه لشبهها بالهند، وقربها منها، اللهم الا ان في مدينة زبيد في بستان السلطان شُجَيرات من النارجيل. واذ قد وقع ذكر التَنبُول والنارجيل، فلنذكرهما ولنذكر خصائصها:

ذكر التنبول

والتنبول شجر يُغرس كما تُغرس دوالي العنب، ويصنع له معرَّشات من القصب، كما يُصنع لدوالي العنب، او يُغرس له في مجاورة شجر النارجيل، فيصعد فيها كما تصعد الدوالي، وكما يصعد الفلفل. ولا ثمر للتنبول وانما المقصود منه ورقه، وهو يشبه ورق العلّيق، واطيبه الاصفر؛ وتُجتنى اوراقه في كل يوم. واهل الهند يعظّمون التنبول تعظيماً شديداً. واذا اتى الرجل دار صاحبه فاعطاه خمس ورقات منه، فكأنما اعطاه الدنيا وما فيها. لا سيّما ان كان اميراً او كبيراً، واعطاؤه عندهم اعظم شأناً وادلّ على الكرامة، من اعطاء الفضة والذهب.

وكيفية استعماله ان يؤخذ قبله الفوفل، وهو شبه جوز الطيب، فيكسر حتى يصير اطرافاً صغاراً، ويجعله الانسان في فمه ويعلكه. ثم يأخذ ورق التنبول، فيجعل عليه شيئاً من النورة، ويضغها مع الفوفل. وخاصيته انه يطيّب النكهة ويذهب بروائح الفم، ويهضم الطعام، ويقطع ضرر شرب الماء على الريق. ويُفرح اكله. ويجعله الانسان عند رأسه ليلاً فاذا استيقظ من نومه، او ايقظته زوجته او جاريته، اخذ منه فيذهب بما في فمه من رائحة كريهة.

ذكر النارجيل

وهو جوز الهند. وهذا الشجر من اغرب الاشجار شأناً واعجبها امراً. وشجره شبه شجر النخل لا فرق بينهما، الا ان هذه تثمر جوزاً وتلك تثمر تمراً. وجوزها يشبه رأس ابن آدم، لان فيها شبه العينين، والفم،

وداخلها شبه الدماغ اذا كانت خضراء، وعليها ليف شبه الشعر. وهم يصنعون منه حبالاً يخيطون بها المراكب عوضاً عن مسامير الحديد، ويصنعون الحبال منه للمراكب. والجوزة منها، وخصوصاً التي بجزائر ذيبة المَهل، تكون بمقدار رأس الآدمي.

ويزعمون ان حكيماً من حكماء الهند، في غابر الزمان، كان متصلاً بملك من الملوك، ومعظماً لديه. وكان للملك وزير بينه وبين هذا الحكيم معاداة. فقال الحكيم للملك: «ان رأس هذا الوزير، اذا قُطع ودُفن، تخرج منه نخلة تثمر بتمر عظيم يعود نفعه على اهل الهند وسواهم من اهل الدنيا». فقال له الملك: «فان لم يظهر من رأس الوزير ما ذكرته؟» قال: «ان لم يظهر فاصنع برأسي كما صنعت برأسه». فامر الملك برأس الوزير فقُطع، واخذه الحكيم وغرس نواة تمر في دماغه، وعالجها حتى صارت شجرة، واثمرت بهذا الجوز. وهذه الحكاية من الاكاذيب، وانما ذكرناها لشهرتها عندهم.

ومن خواص هذا الجوز تقوية البدن، واسراع السِمَن، والزيادة في حمرة الوجه. ومن عجائبه انه يكون في ابتداء امره اخضر، فمن قطع بالسكين قطعة من قشره وفتح رأس الجوزة، شرب منها ماء في النهاية من الحلاوة والبرودة، ومزاجه حارّ. فاذا شرب ذلك الماء، اخذ قطعة القشرة وجعلها شبه الملعقة، وجرّد بها ما في داخل الجوزة من الطُعم. فيكون طَعمه كطَعم البيضة، اذا شُويت ولم يتمّ نضجها كلّ التمام، ويتغذّى به. ومنه كان غذائي ايام اقامتي بجزائر ذيبة المَهل، مدّة عام ونصف عام.

ومن عجائبه انه يُصنع منه الزيت ، والحليب ، والعسل :

فاما كيفية صناعة العسل منه ، فان خدّام النخل منه ، ويسمّون «الفازانيّة» ، يصعدون الى النخلة غدواً وعشياً ، اذا ارادوا اخذ مائها الذي يصنعون منه العسل . وهم يسمّونه « الاطواق » . فيقطعون العِذق الذي يخرج منه الثمر ويتركون منه مقدار اصبعين ، ويربطون عليه قدراً صغيرة ، فيقطر فيها الماء الذي يسيل من العِذق . فاذا ربطها غدوةً صعد اليها عشياً ، ومعه قدحان من قشر الجوز المذكور ، احدهما مملوء ماء . فيصب ما اجتمع من ماء العذق في احد القدحين ، ويغسله بالماء الذي في القدح الآخر . وينجر من العذق قليلاً ، ويربط عليه القِدر ثانية . ثم يفعل غدوةً كفعله عشياً . فاذا اجتمع له الكثير من ذلك الماء ، طبخه كما يطبخ ماء العنب اذا صُنع منه الرُبّ . فيصير عسلاً عظيم النفع طيباً ، فيشتريه تجار الهند واليمن والصين ، ويحملونه الى بلادهم ، ويصنعون منه الحلواء .

واما كيفية صنع الحليب منه ، فان بكل دار شبه كرسي تجلس فوقه المرأة ، ويكون بيدها عصيٌ في احد طرَفيها حديدة مُشرفة . فيفتحون في الجوزة مقدار ما تدخل تلك الحديدة ، ويحرشون ما في باطن الجوزة . وكل ما ينزل منها يجتمع في صحفة ، حتى لا يبقى في داخل الجوزة شيء . ثم يُمرس ذلك الجريش بالماء فيصير كلون الحليب بياضاً ، ويكون طعمه كطعم الحليب ، ويأتدم به الناس .

واما كيفية صنع الزيت ، فانهم يأخذون الجوز بعد نضجه وسقوطه عن شجره . فيزيلون قشره ، ويقطعونه قطعاً ، ويُجعل في الشمس . فاذا ذبل طبخوه في القدور ، واستخرجوا زيته . وبه يستصبحون ويأتدمون به ،

ويجعله النساء في شعورهنّ . وهو عظيم النفع .

حاسك

ومن هذه المدينة ، ركبنا البحر نريد عمان ، في مركب صغير لرجل يُعرف بعلي بن ادريس المصيري ، من اهل جزيرة مصيرة . وفي الثاني لركوبنا ، نزلنا برسى حاسك . وبه ناس من العرب ، صيادون للسمك ، ساكنون هنالك . وعندهم شجر الكندُر ، وهو رقيق الورق ، واذا شُرطت الورقة منه ، قطر منها ماء شبه اللبن ، ثم عاد صمغاً . وذلك الصمغ هو اللُبان ، وهو كثير جداً هنالك . ولا معيشة لاهل هذا المرسى الا من صيد السمك ، وسمكهم يُعرف «باللَخم» . وهو يشبه كلب البحر ، يُشرّح ويُقدّد ويُقتات به . وبيوتهم من عظام السمك ، وسقفها من جلود الجمال .

ومن هناك يسير الى جبل لُمعان ، فجزيرة الطير ، فجزيرة مصيرة ، فقرية صور ، فدينة قَلْهات ، فقرية طيبي

عُمان

ثم قصدنا بلاد عُمان فسرنا ستة ايام في صحراء . ثم وصلنا بلاد عمان في اليوم السابع . وهي خصبة ، ذات انهار واشجار وبساتين ، وحدائق نخل ، وفاكهة كثيرة مختلفة الاجناس .

نَزْوا

ووصلنا الى قاعدة هذه البلاد ، وهي مدينة نَزْوا . . . في سفح جبل تحفّ بها البساتين والانهار . ولها اسواق حسنة ، ومساجد معظّمة نقيّة . وعادة اهلها انهم يأكلون في صحون المساجد ، يأتي الانسان بما عنده ، ويجتمعون للاكل في صحن المسجد ، ويأكل معهم الوارد والصادر . ولهم نجدة وشجاعة ، والحرب قائمة فيما بينهم ابداً .

وهم اباضية المذهب(١)، ويصلّون الجمعة ظهراً اربعاً، فاذا فرغوا منها قرأ الامام آيات من القرآن، ونثر كلاماً شبه الخطبة، يُرضي (٢ فيه عن ابي بكر وعمر، ويسكت عن عثمان وعلي. وهم اذا ارادوا ذكر علي (رضه) كنّوا عنه بالرجل، فقالوا: «ذُكر عن الرجل...» او «قال الرجل...» ويرضون عن الشقيّ اللعين ابن ملجم، ويقولون فيه: «العبد الصالح قامع الفتنة». ونساؤهم يكثرن الفساد، ولا غيرة عندهم ولا انكار لذلك.

هُرمُز

ثم سافرت من بلاد عمان الى بلاد هُرمُز. وهُرمُز بلاد على ساحل البحر، وتسمّى ايضاً موغاستان، وتقابلها في البحر هُرمُز الجديدة، وبينهما في البحر ثلاثة فراسخ. ووصلنا الى هرمز الجديدة، وهي جزيرة مدينتها تسمّى جَرَوْن. وهي مدينة حسنة كبيرة، لها اسواق حافلة. وهي مرسى الهند والسند، ومنها تحمل سلع الهند الى العراقين، وفارس، وخراسان. وبهذه المدينة سكنى السلطان، والجزيرة التي فيها المدينة

١) الاباضية: هي فرقة من الخوارج تبعوا عبد الله بن اباض المرّي. وكانت اولى ثوراتهم على الخلفاء سنة ١٢٩ هـ. (٧٤٧) على عهد مروان الثاني، فاحتلوا حضرموت وصنعاء ومكة والمدينة. ولكن لم يلبثوا ان كُسروا وأُخرجوا من مكة. على انهم اعادوا الكرة سنة ١٣٤ هـ. (٧٥١—٧٥٢) فانتشروا من ذاك الحين في بلاد عمان. وفي سنة ١٥٣ هـ. (٧٧٠) تغلبوا على مملكة افريقيا وانتشروا في طرابلس الغرب. اما معتقدهم، فيما يختص باصول الدين، فيوافق، تقريباً، معتقد السنيين. فهم يعتبرون القرآن والحديث من اصول الايمان، غير انهم يبدلون الاجماع والقياس، بالرأي. — ٢) يرضي: يقول: رضي الله

مسيره يوم، واكثرها سباخ وجبال ملح، وهو الملح الداراني، وبه يصنعون الاواني للزينة، والمنارات التي يضعون السرج عليها. وطعامهم السمك والتمر المجلوب اليهم من البصرة وعمان، ويقولون بلسانهم: «خُزما وماهى لوتِ پا دشاهى!» معناه بالعربي: «التمر والسمك طعام الملوك!».

والماء في هذه الجزيرة له قيمة، وبها عيون ماء وصهاريج مصنوعة يجتمع فيها ماء المطر، وهي على بعدٍ من المدينة، ويأتون اليها بالقِرَب، فيملأونها ويرفعونها على ظهورهم الى البحر، ويوسِقونها في القوارب، ويأتون بها الى المدينة.

ورأيت من العجائب عند باب الجامع، فيما بينه وبين السوق، رأس سمكة كأنه رابية، وعيناه كأنهما بابان. فترى الناس يدخلون من احداهما ويخرجون من الاخرى.

ثم سافر من جَرَوْن الى كَوْرَستان، فدينة لار، فدينة خنج بال حيث زار الشيخ ابا دُلف الفقير، فدينة سيراف

سيراف

وهي على ساحل بحر الهند المتصل ببحر اليمن وفارس، وعدادُها في كور فارس. مدينة لها انفساح وسعة، طيبة البقعة، في دورها بساتين عجيبة فيها الرياحين والاشجار الناضرة، وشرب اهلها من عيون منبعثة من جبالها. وهم عجم من الفرس اشراف، وفيهم طائفة من عرب بني سفاف، الذين يغوصون على الجوهر.

ذكر مغاص الجوهر

ومغاص الجوهر فيما بين سيراف والبحرين، في خور راكد مثل الوادي العظيم. فاذا كان شهر ابريل وشهر مايه، تأتي اليه القوارب الكثيرة فيها الغوّاصون، وتجار فارس والبحرين والقطيف. ويجعل الغوّاص على وجهه، مهما اراد ان يغوص، شيئاً يكسوه، من عظم الغَيْلَم، وهي السلحفاة. ويصنع من هذا العظم ايضاً شكلاً شبه المِقراض يشدّه على انفه. ثم يربط حبلاً في وَسطه، ويغوص. ويتفاوتون في الصبر في الماء، فمنهم من يصبر الساعة والساعتين فما دون ذلك. فاذا وصل الى قعر البحر، يجد الصدف هنالك فيما بين الاحجار الصغار، مثبتاً في الرمل؛ فيقتلعه بيده، او يقطعه بحديدة عنده معدّة لذلك، ويجعلها في مخلاة جلد، منوطة بعنقه. فاذا ضاق نفَسه حرّك الحبل، فيحسّ به الرجل الممسك للحبل، على الساحل، فيرفعه الى القارب. فتؤخذ منه المخلاة، ويُفتح الصدف، فيوجد في اجوافها قطع لحم تقطع بحديدة. فاذا باشرت الهواء، جمدت فصارت جواهر. فيجمع جميعها من صغير وكبير، فيأخذ السلطان خمسه، والباقي يشتريه التجار الحاضرون بتلك القوارب. واكثرهم يكون له الدَين على الغوّاصين فيأخذ الجوهر في دينه، او ما وجب له منه.

البحرين

ثم سافرنا من سيراف الى مدينة البحرين. وهي مدينة كبيرة حسنة، ذات بساتين واشجار وانهار. وماؤها قريب المؤنة يُحفر عليه بالايدي، فيوجد. وبها حدائق النخل والرمان والاترج. ويُزرع بها القطن. وهي

شديدة الحرّ، كثيرة الرمال، وربما غلب الرمل على بعض منازلها. وكان فيما بينها وبين عمان طريق استولت عليه الرمال وانقطع، فلا يوصل من عمان اليها الا في البحر...

القُطيف

ثم سافرنا الى مدينة القُطَيف. وهي مدينة كبيرة حسنة ذات نخل كثير، يسكنها طوائف العرب، وهم رافضية غُلاة...

هجر

ثم سافرنا الى مدينة هَجَر، وتسمّى الان بالحسا... وهي التي يُضرب المثل بها فيقال: «كجالب التمر الى هجر!» وبها من النخيل ما ليس ببلدٍ سواها، ومنهم يعلفون دوابّهم. واهلها عرب، واكثرهم من قبيلة عبد القيس بن افصى.

اليمامة

ثم سافرنا منها الى مدينة اليمامة، وتسمّى ايضاً بحَجر... مدينة حسنة خصبة ذات انهار واشجار. يسكنها طوائف من العرب، اكثرهم من بني حنيفة. وهي بلدهم قديماً، واميرهم طفيل بن غانم.

وحجّ منها الى مكة مع الامير المذكور سنة ٥٣٢هـ. (١٣٣٢) وسار من هناك الى عيذاب فمصر، ثم رجع الى فلسطين وسوريا ولبنان فقطعها الى اللاذقية

الفصل التاسع

في آسيا الصغرى

في البحر

ومن اللاذقية ركبنا البحر في قُرقُورة (١ كبيرة للجنويّين، يسمّى صاحبها برتلمين (٢، وقصدنا برّ التركيّة المعروف ببلاد الروم. وانما نسبت الى الروم لانها كانت بلادهم في القديم. ومنها الروم الاقدمون واليونانيّة. ثم استفتحها المسلمون وبها الان كثير من النصارى، تحت ذمة التركمان. وسرنا في البحر عشرًا بريح طيّبة. واكرمنا النصراني (٣ ولم يأخذ منا نَولاً (٤.

مدينة العَلايا

وفي العاشر وصلنا الى مدينة العَلايا، وهي اول بلاد الروم. وهذا الاقليم، المعروف ببلاد الروم، من احسن اقاليم الدنيا. وقد جمع الله فيه ما تفرّق من المحاسن في البلاد. فاهله اجمل الناس صورًا، وانظفهم

---

١) قُرقُورة : مركب كبير

٢) برتَلمين : لعلّه تصحيف « برتولميو »

٣) النصراني : اي صاحب المركب

٤) النَوْل : كلمة يونانية الاصل، معناها : ما يدفعه المسافر في المركب من الاجرة وهو ما يسميه عامتنا « بالناولون »

ملابس، واطيبهم مطاعم، واكثر خلق الله شفقة. ولذلك يُقال : « البركة في الشام، والشفقة في الروم ! » . . .

ويسافر من العَلايا الى مدينة أنطالية فيذكر الجمعية المعروفة « بالاخيّة الفتيان »

ذكر الأخيّة الفتيان

واحد الأخية اخيّ على لفظ الاخ اذا اضافه المتكلّم الى نفسه. وهم بجميع البلاد التركمانية الرومية، في كل بلد، ومدينة، وقرية. ولا يوجد في الدنيا مثلهم اشدّ احتفالاً بالغرباء من الناس، واسرع الى اطعام الطعام وقضاء الحوائج، والاخذ على ايدي الظلَمَة، وقتل الشُرَط، ومن لحق بهم من اهل الشرّ. والاخيّ، عندهم، رجل يجتمع اهل صناعته وغيرهم من الشبان الاعزاب والمتجردين، ويقدّمونه على انفسهم. وذلك هي « الفتوّة » ايضاً. وبني زاوية ويجعل فيها الفرش، والسُرُج، وما يحتاج اليه من الآلات. ويخدم اصحابه بالنهار في طلب معائشهم؛ ويأتون اليه بعد العصر بما يجتمع لهم، فيشترون به الفواكه والطعام الى غير ذلك مما يُنفق في الزاوية. فان ورد في ذلك اليوم مسافر على البلد، انزله عندهم، وكان ذلك ضيافته لديهم ولا يزال عندهم حتى ينصرف. وان لم يرد وارد، اجتمعوا هم على طعامهم، فأكلوا وغنّوا ورقصوا، وانصرفوا الى صناعاتهم بالغدو؛ واتوا بعد العصر الى مقدّمهم بما اجتمع لهم. ويسمّون « بالفتيان »، ويسمّى مقدّمهم، كما ذكرنا، « الاخيّ ». ولم ار في الدنيا اجمل افعالاً منهم. ويشبههم في افعالهم اهل شيراز واصفهان، الّا ان هؤلاء احب في الوارد والصادر، واعظم اكراماً له وشفقةً عليه.

وفي الثاني من يوم وصولنا الى هذه المدينة، اتى احد هؤلاء الفتيان الى الشيخ شهاب الدين الحموي، وتكلّم معه باللسان التركي، ولم اكن يومئذٍ افهمه. وكان عليه اثواب خِلقَة، وعلى رأسه قلنسوة لبد. فقال لي الشيخ: «اتعلم ما يقول هذا الرجل؟» فقلت: «لا اعلم ما قال». فقال لي: «انه يدعوك الى ضيافته، انت واصحابك». فعجبت منه، وقلت له: «نعم». فلما انصرف قلت للشيخ: «هذا رجل ضعيف، ولا قدرة له على تضييفنا، ولا نريد ان نكلّفه». فضحك الشيخ وقال لي: «هذا احد شيوخ الفتيان الاخيّة، وهو من الخرّازين (١)، وفيه كرم نفس. واصحابه نحو مائتين من اهل الصناعات، قد قدّموه على انفسهم وبنوا زاوية للضيافة. وما يجتمع لهم بالنهار انفقوه بالليل.

وصف الضيافة

فلما صليت المغرب، عاد الينا ذلك الرجل، وذهبنا معه الى زاويته. فوجدنا زاوية حسنة، مفروشة بالبُسُط الرومية الحسان وبها الكثير من تُرَيّات الزجاج العراقي. وفي المجلس خمسة من البياسيس، والبيسوس شبه المنارة من النحاس، له ارجل ثلاث، وعلى رأسه شبه جلاس من النحاس، وفي وسطه انبوب للفتيلة. ويملأ من الشحم المُذاب، والى جانبه آنية نحاس مِلاء بالشحم؛ وفيها مقراض لاصلاح الفتيل. واحدهم موكّل بها ويسمّي عندهم «الجراجي» (٢). وقد اصطف في المجلس جماعة من الشبان، ولباسهم الأقبية، وفي ارجلهم الأخفاف، وكل واحد منهم

١) الخرّاز: الاسكاف

٢) جراجي: من التركية «چراغچي» اي الموكّل بالقنديل، صاحب القنديل

متحزّم، على وسطه سكّين في طول ذراعين، وعلى رؤوسهم قلانس بيض من الصوف، باعلى كل قلنسوة قطعة موصلة بها في طول ذراع وعرض اصبعين. فاذا استقرّ بهم المجلس، نزع كل واحد قلنسوته ووضعها بين يديه؛ وتبقى على رأسه قلنسوة اخرى من الزَرْدَخاني (١ وسواه، حسنة المنظر. وفي وسط مجلسهم شبه مرتبة موضوعة للواردين.

ولما استقرّ بنا المجلس عندهم، اتوا بالطعام الكثير، والفاكهة، والحلواء. ثم اخذوا في الغناء والرقص. فراقنا حالهم، وطال عجبنا من سماحهم، وكرم انفسهم، وانصرفنا عنهم آخر الليل، وتركناهم بزاويتهم.

ثم يذكر سلطان انطالية، خضر بك. ويسير منها الى بلدة بُردور، فسَبَرْتا، فمدينة اكريدور، فيذكر سلطانها ابو اسحق بك ابن الدندار بك؛ فالى مدينة قُل حصار، ويذكر سلطانها محمد چلبي؛ فمدينة لاذِق، ويذكر سلطانها يَنَنج بك؛ فحصن طواس، فمدينة ميلاس، ويذكر سلطانها شجاع الدين أُرخان بك. الى ان يصل الى مدينة قونية

قونيه

مدينة عظيمة، حسنة العمارة، كثيرة المياه والانهار والبساتين والفواكه، وبها المشمش المسمّى بقمر الدين... ويحمل منه الى ديار مصر والشام. وشوارعها متسعة جداً، واسواقها بديعة الترتيب، واهل كل صناعة على حدة.

ويقال ان هذه المدينة من بناء الاسكندر. وهي من بلاد السلطان بدر الدين قَرَمان... وقد تغلّب عليها صاحب العراق، في بعض الاوقات، لقربها من بلاده التي بهذا الاقليم.

١) الزردخاني: نوع من الحرير الرقيق يشبه «النفتا»

جلال الدين الرومي

وبهذه المدينة تربة الشيخ الامام، الصالح، القُطب، جلال الدين المعروف «بمولانا» (١. وكان كبير القدر. وبارض الروم طائفة ينتمون اليه ويعرفون باسمه فيقال لهم «الجلالية»... وعلى تربته زاوية عظيمة فيها الطعام للصادر والوارد.

حكاية

يُذكر انه (اي جلال الدين) كان في ابتداء امره فقيهاً مدرّساً، يجتمع اليه الطلبة بمدرسته، بقونية. فدخل يوماً الى المدرسة رجل يبيع الحلواء، وعلى رأسه طبق منها، وهي مقطوعة قطعاً، يُبيع القطعة منها بفلس. فلما اتى مجلس التدريس قال له الشيخ: «هات طبقك» فاخذ الحلواني قطعة منها واعطاها للشيخ. فاخذها الشيخ بيده، واكلها. فخرج الحلواني ولم يطعم احداً سوى الشيخ، فخرج الشيخ في اتباعه، وترك التدريس. فأبطأ على الطلبة، وطال انتظارهم اياه. فخرجوا في طلبه، فلم يعرفوا له مستقراً. ثم انه عاد اليهم بعد اعوام، وتولّه، وصار لا ينطق الّا بالشعر الفارسي المتعلّق (٢، الذي لا يُفهم. فكان الطلبة يتبعونه ويكتبون

---

١) هو جلال الدين الرومي (١٢٠٧-١٢٧٣) اعظم شعراء الاسلام الصوفيين، ومؤسس طريقة الجلاليين او المولويين. ولد في بلخ وتوفي في قونية وكان صديقاً حميماً لشمس الدين التبريزي حتى ضرب المثل بصداقتهما. له كتب شعرية باللغة الفارسية منها «المثنوي» و«والديوان» وكتاب في النثر عنوانه: «فيه ما فيه»

٢) المتعلّق: اي ذو القافية الواحدة في الشطرين من البيت

ما يصدر عنه من ذلك الشعر، والفوا منه كتاباً سمّوه «المثنوي». واهل تلك البلاد يعظمون ذلك الكتاب، ويعتبرون كلامه، ويعلّمونه، ويقرأونه بزواياهم في ليالي الجمعات.

ومن هناك سافر الى اللارَنْدة، فأقصَرا، فنَكْدَة، فقيسارية، فسيواس، فأماصِيَة، فكُمِش، فأرزِنجان، فبِرْكي، وذكر سلطانها محمد بن آيدين.

حكاية

الحجر الساقط من السماء

وسألني السلطان، في هذا المجلس، فقال لي: «هل رأيت قط حجراً نزل من السماء؟» فقلت: «ما رأيت ذلك، ولا سمعت به» فقال لي: «انه قد نزل، بخارج بلدنا هذا، حجر من السماء.» ثم دعا رجالاً، وامرهم ان يأتوا بالحجر. فاتوا بحجر اسود اصمّ، شديد الصلابة، له بريق، قدّرت ان زِنَتَه تبلغ قنطاراً. وامر السلطان باحضار القطّاعين فحضر اربعة منهم، فامرهم ان يضربوه، فضربوا عليه ضربة رجل واحد، اربع مرّات بطارق الحديد. فلم يؤثر فيه شيئاً. فعجبت من امره. وامر بردّه الى حيث كان.

وسافر من بركي الى تِيرَة، فمدينة أياسُلُوق، فبَزْمِير (أزمير)، فمَغْنيسية، فبرغمة، فبَلي كَسْري، فبُرْصَ (بورصة)، فيزنيك، فمَكَجا، فكَاوية، فكَينوك، قُطُرني، فبُولي، فكَرَدَي بُولي

قَسطَمونية

وهي من اعظم المدن واحسنها، كثيرة الخيرات، رخيصة الاسعار. نزلنا منها بزاوية شيخ يُعرف «بالأطروش» لثقل سمعه. ورأيت منه عجباً

وهو : ان احد الطلبة كان يكتب له في الهواء ، وتارةً في الارض باصبعه ، فيفهم عنه ويجيبه . ويحكي له بذلك الحكايات فيفهمها .

واقمنا بهذه المدينة نحو اربعين يوماً . فكنّا نشتري طابق (١ اللحم الغنمي السمين بدرهمين ، ونشتري خبزاً بدرهمين ، فيكفينا ليومنا ، ونحن عشرة . ونشتري حلواء العسل بدرهمين فتكفينا اجمعين . ونشتري جوزاً بدرهم ، وقسطلاً (٢ بمثله ، فنأكل منها اجمعون ، ويفضل باقيها . ونشتري حمل الحطب بدرهم ، وذلك اوان البرد الشديد . ولم ارَ في البلاد مدينة ارخص اسعاراً منها .

وزار بعد ذلك مدينة صَنُوب ، ثم ركب البحر الى بلاد القُرم

الفصل العاشر

بلاد القريم — روسيا الجنوبية

في البحر الاسود

فاكترينا مركباً ، للروم ، واقمنا احد عشر يوماً ننتظر مساعدة الريح . ثم ركبنا البحر (٣ فلما توسطناه بعد ثلاث ، هال علينا واشتدّ بنا الامر ،

١) اي نصف الخروف
٢) القسطل : هو ما نسميه « الكستنا »
٣) المقصود : البحر الاسود

ورأينا الهلاك عياناً . وكنت بالطارمة (١ ، ومعنا رجل من اهل المغرب ، يسمّى ابا بكر . فامرته ان يصعد الى اعلى المركب لينظر كيف البحر ، ففعل ذلك واتاني بالطارمة فقال لي : « استودعك الله ! » . ودهمنا من الهول ما لم يعهد مثله . ثم تغيّرت الريح ، وردّتنا الى مقربة من مدينة صَنوب التي خرجنا منها . واراد بعض التجار النزول الى مرساها ، فمنعت صاحب المركب من انزاله .

ثم استقامت الريح وسافرنا . فلما توسطنا البحر ، هال علينا ، وجرى لنا مثل المرّة الاولى . ثم ساعدت الريح ، ورأينا جبال البرّ وقصدنا مرسى يسمّى الكرَش (٢ ، فاردنا دخوله . فاشار الينا اناس كانوا بالجبل ان لا تدخلوا . فخفنا على انفسنا ، وظننا ان هناك اجفاناً (٣ للعدو ، فرجعنا مع البرّ . فلما قاربناه ، قلت لصاحب المركب : « اريد ان انزل ها هنا » . فانزلني بالساحل . ورأيت كنيسة فقصدتها . . . وبتنا تلك الليلة بالكنيسة ، وطبخنا دجاجاً فلم نستطع اكلها ، اذ كانت مما استصحبناه في المركب ، ورائحة البحر قد غلبت على كل ما كان فيه .

صحراء قِفْجَق

وهذا الموضع الذي نزلنا به ، هو من الصحراء المعروفة « بدشت قِفجَق » — والدشت بلسان الترك هو الصحراء — وهذه الصحراء خضرة نضرة ، لا شجر بها ، ولا جبل ، ولا تلّ ، ولا ثنية ، ولا حطب . وانما

١) الطارمة : مخدع في مؤخر المركب ، نافذ الى الماء
٢) الكَرَش : هو البوسفور
٣) الاجفان : المراكب الكبيرة

يوقدون الاروث ويسمّونها «التزك». فترى كبراءهم يلتقطونها ويجعلونها في اطراف ثيابهم.

طريقة السفر

ولا يُسافر في هذه الصحراء، الّا في العجل. وهي مسيرة ستة اشهر: ثلاثة منها في بلاد السلطان محمد اوزبك، وثلاثة في بلاد غيره.

ولما كان الغد من يوم وصولنا الى هذه المرسى، توجه بعض التجار من اصحابنا، الى من بهذه الصحراء من الطائفة المعروفة «بقِفْجَق»، وهم على دين النصرانية، فاكترى منهم عجلة يجرّها الفرس.

مدينة الكفا

فركبناها ووصلنا الى مدينة الكفا... وهي مدينة عظيمة، مستطيلة على ضفة البحر، يسكنها النصارى واكثرهم الجنويون. ولهم امير يعرف «بالدمدير». ونزلنا منها بمسجد المسلمين.

حكاية

ولما نزلنا بهذا المسجد، اقمنا به ساعة. ثم سمعنا اصوات النواقيس من كل ناحية، ولم اكن سمعتها قط، فهالني ذلك، وامرت اصحابي ان يصعدوا الصومعة، ويقرأوا القرآن، ويذكروا الله ويؤذّنوا، ففعلوا ذلك. فاذا برجل قد دخل علينا، وعليه الدرع والسلاح، فسلّم علينا. واستفهمناه عن شأنه، فاخبرنا انه قاضي المسلمين هناك، وقال: «لما سمعت القراءة والاذان، خفت عليكم، فجئت كما ترون». ثم انصرف عنّا، وما رأينا الّا خيراً.

ثم اكترى عجلة فسافر عليها الى مدينة القِرم، وهي اسكي قرم. واراد السير الى مدينة السرا، حضرة السلطان محمد اوزبك، فاشترى العجلات لذلك، ووصفها قائلاً:

ذكر العجلات التي يُسافر عليها بهذه البلاد

وهم يسمّون العجلة «عرَبة». وهي عجلات تكون للواحدة منهنّ اربع بكرات كبار؛ ومنها ما يجرّه فرسان ومنها ما يجرّه اكثر من ذلك؛ وتجرّها ايضاً البقر والجمال، على حال العربة في ثقلها او خفتها. والذي يخدم العربة يركب احد الافراس التي تجرّها ويكون عليه سرج؛ وفي يده سوط يحرّكه للمشي، وعود كبير يصوّبها به اذا حادت عن القصد. ويُجعل على العربة شبه قبّة من قضبان خشب مربوط بعضها الى بعض بسيور جلد رقيق. وهي خفيفة الحمل، وتُكسى باللبد او باللِّفّ(١). ويكون فيها طيقان مشبّكة. ويرى الذي بداخلها الناس، ولا يرونه. ويتقلّب فيها كما يحبّ، وينام، ويأكل، ويكتب، وهو في حال سيره. والتي تحمل الاثقال، والازواد، وخزائن الاطعمة، من هذه العربات، يكون عليها شبه البيت كما ذكرنا وعليه قفل.

ووصل الى مدينة أزاق، وذكر كثرة الخيل في هذه البلاد ورخص ثمنها، واصدارها الى بلاد السند بكثرة. ثم سافر الى مدينة الماجر ولاحظ ان النساء فيها اعلى شأناً من الرجال فقال:

تعظيم النساء

ورأيت بهذه البلاد عجباً من تعظيم النساء عندهم. وهنّ اعلى شأناً

(١) اي الجوخ

من الرجال. فاما نساء الامراء، فكانت اول رؤيتي لهنَّ عند خروجي من القرَم، رؤية الخاتون (١ زوجة الامير سلطية، في عربة لها، وكلها محلّلة بالملفّ الازرق الطيب، وطيقان البيت مفتوحة وابوابه. وبين يديها اربع جوارٍ فائقات الحسن، بديعات اللباس. وخلفها جملة من العربات فيها جوارٍ يتبعنها. ولما قربت من منزل الامير، نزلت عن العربة الى الارض. ونزل معها نحو ثلاثين من الجواري، يرفعنَ اذيالها. ولأثوابها عرًى، تأخذ كل جارية بعروة، ويرفعن الاذيال عن الارض من كل جانب...

واما نساء الباعة والسوقة، فرأيتهنَّ واحداهنَّ تكون في العربة والخيل تجرُّها، وبين يديها الثلاث والاربع من الجواري يرفعن اذيالها. وعلى رأسها البُغطاق، وهو اقروف (٢ مرصَّع بالجوهر، وفي اعلاه ريش الطواويس. وتكون طيقان البيت مفتَّحة، وهي بادية الوجه، لان نساء الاتراك لا يحتجبن. وتأتي احداهنَّ على هذا الترتيب، ومعها عبيدها، بالغنم واللبن؛ فتبيعه من الناس بالسِلَع العطرية. وربما كان مع المرأة منهنَّ زوجها، فيظنه من يراه بعض خدامها، ولا يكون عليه من الثياب الَّا فروة من جلد الغنم، وفي رأسه قلنسوة تناسب ذلك، يسمّونها «الكُلاه».

وترك مدينة الماجر الى معسكر السلطان في بش دغ، وهو السلطان محمد اوزبك خان، فذكر حاشيته العديدة، وبلاده الواسعة، وعاداته، ونساءه منهنَّ الخاتون الكبيرة، وابنته، وابنيه: تينَ بك (اي امير الجسد) وجان بك (اي امير الروح)

١) اي الاميرة
٢) اقروف: قبعة مستطيلة مخروطة الشكل

ذكر سفري الى مدينة بُلغار

وكنت سمعت بمدينة بُلغار، فاردت التوجّه اليها، لارى ما ذُكر عنها من انتهاء قصر الليل بها، وقصر النهار ايضاً، في عكس ذلك الفصل. وكان بينها وبين محلّة السلطان مسيرة عشر. فطلبت منه من يوصلني اليها، فبعث معي من اوصلني اليها، وردَّني اليه. ووصلتها في رمضان فلما صلّينا المغرب افطرنا، وأُذِّن بالعشاء في اثناء افطارنا، فصلّيناها، وصلّينا التراويح، والشَفع، والوتر، وطلع الفجر اثر ذلك. وكذلك يقصر النهار بها، في فصل قصره ايضاً. واقمت بها ثلاثاً.

ذكر ارض الظلمة

وكنت اردت الدخول الى ارض الظلمة، والدخول اليها من بُلغار، وبينهما مسيرة اربعين يوماً، ثم اضربت عن ذلك لعظم المؤنة فيه، وقلّة الجدوى. والسفر اليها لا يكون الَّا في عجلات صغار، تجرُّها كلاب كبار. فان تلك المفازة فيها الجليد، فلا يثبت قدم الآدمي، ولا حافر الدابة فيها، والكلاب لها الاظفار، فتثبت اقدامها في الجليد.

طريقة السفر

ولا يدخلها الَّا الاقوياء من التجار الذين يكون لاحدهم مائة عجلة او نحوها، موقرة بطعامه، وشرابه، وحطبه. فانها لا شجر فيها ولا حجر ولا مَدَر. والدليل بتلك الارض هو الكلب الذي قد سار فيها مراراً كثيرة. وتنتهي قيمته الى الف دينار ونحوها وتربط العربة الى عنقه،

ويقرن معه ثلاثة من الكلاب. ويكون هو المقدّم، وتتبعه سائر الكلاب بالعربات، فاذا وقف وقفت. وهذا الكلب لا يضربه صاحبه ولا ينهره؛ واذا حضر الطعام، اطعم الكلاب اولاً قبل بني آدم. والّا غضب الكلب، وفرّ وترك صاحبه للتلف.

كيفية المعاملات

فاذا كملت للمسافرين، بهذه الفلاة، اربعون مرحلة، نزلوا عند الظلمة؛ وترك كل واحد منهم ما جاء به من المتاع هنالك، وعادوا الى منزلهم المعتاد. فاذا كان من الغد عادوا لتفقّد متاعهم، فيجدون بازائه من السمّور، والسِنجاب، والقاقم. فان ارضى صاحب المتاع ما وجده ازاء متاعه، اخذه. وان لم يرضه، تركه؛ فيزيدونه. وربما رفعوا متاعهم، اعني اهل الظلمة، وتركوا متاع التجار. وهكذا بيعهم وشراؤهم. ولا يعلم الذين يتوجهون الى هنالك من يبايعهم ويشاريهم: امن الجن ام من الانس، ولا يرون احدًا

القاقم والسّمور

والقاقم هو احسن انواع الفراء. وتساوي الفروة منه ببلاد الهند الف دينار، وصرفها من ذهبنا مائتان وخمسون. وهي شديدة البياض من جلد حيوان صغير، في طول الشبر، وذنبه طويل يتركونه في الفروة على حاله.

والسمور دون ذلك، تساوي الفروة منه اربعمائة دينار فما دونها. ومن خاصيّة هذه الجلود انه لا يدخلها القمل. وامراء الصين وكبارها يجعلون منه الجلد الواحد متصلًا بفرواتهم، عند العنق. وكذلك تجار فارس والعراقين.

فهرس

ص

الرحلة الاولى (تابع)

الاسماعيلية ٤٣
اللاذقية ٤٤
جبل لبنان ٤٤
حكاية ٤٥
بعلبك — الزبداني ٤٥
دمشق ٤٦
جامع بني امية ٤٧
حكاية ٤٩
مرض ابن بطوطة ٤٩

الفصل الرابع: البلاد العربية

المدينة ٥٠
مكة ٥١
مشهد علي ٥٢
البصرة ٥٣
حكاية اعتبار ٥٤
الصومعة التي تتحرّك ٥٥

الفصل الخامس: بلاد فارس

ص

إيذج وتستُر ٥٥
الملك ٥٥
موت ابنه ٥٦
حكاية ٥٧
زيارة السلطان ٥٩
اصفهان ٦٠
شيراز ٦١
سلطانها ٦٢
ثلاث حكايات ٦٣ — ٦٤

الفصل السادس: العراق وديار بكر

الكوفة ٦٥
قبر ابن ملجم — صاحب الزمان ٦٦
بغداد ٦٧
طريقة الاستحمام ٦٧
الموصل ٦٨

الفصل السابع: افريقيا الشرقية — اليمن

ص

حكاية ٦٩
تغير الريح ٧٠
سواكن ٧١
اليمن ٧١
سلطانه ٧١
صنعاء — عدن ٧٣
حكاية ٧٤
زيلَع ٧٤
مقدَشو ٧٥
سلطانها ٧٦
مَنْبسى — كُلوَا ٧٧

الفصل الثامن: الرجوع الى جزيرة العرب

ظفار الحموض ٧٨
القنبول — النارجيل ٨٠
حاسك — عمان — نزوا ٨٣
هُرمُز ٨٤
سيراف ٨٥
مغاص الجوهر ٨٦
البحرين ٨٦
القطيف — هجر — اليمامة ٨٧

ص

الفصل التاسع: آسيا الصغرى

في البحر — العلايا ٨٨
الاخيّة الفتيان ٨٩
وصف الضيافة ٩٠
قونية ٩١
جلال الدين الرومي ٩٢
حكاية ٩٢
الحجر الساقط من السماء ٩٣
قصطموني ٩٣

الفصل العاشر: بلاد القريم — روسيا الجنوبية

في البحر الاسود ٩٤
صحراء قِفجَق ٩٥
طريقة السفر ٩٦
الكفا ٩٦
حكاية ٩٦
المجلات — النساء ٩٧
بُلغار ٩٩
ارض الظلمة ٩٩
طريقة السفر ٩٩
المعاملات — القاقم والسمور ١٠٠

انتهى الجزء الثاني ويليه الجزء الثالث

كتابخانه خصوصى
غلامحسين - سرود

الروائع

سلسلة أبحاث في الأدب ، ومنتخبات من أشهر أعلامه

السلسلة الثالثة

ظهرت كلها

في النثر

٢٢ — المعلم بطرس البستاني : خطابان : تعليم النساء — آداب ا

٢٣ — ولي الدين يكن : فصول منتخبة

في الشعر

٢١ — الشيخ ناصيف اليازجي : منتخبات شعرية

٢٤ — طرفة ولبيد : المعلقتان

٢٥ — زهير بن ابي سلمى : منتخبات شعرية

٢٦ — عمرو بن كلثوم ، والحرث بن حلزة : المعلقتان

٢٧ - عنترة : منتخبات شعرية

٢٨ — الخنساء : منتخبات شعرية

٢٩ — الحطيئة : منتخبات شعرية

٣٠ — النابغة : منتخبات ش

٩٦
٩٧
٩٩
٩٩
٩٩
١٠٠ر
٢٨٢٣٠

وسنبتدئ قريباً بسلسلة رابعة